جان جاك روسو

الدكتور سامي الدهان

جان جاك روسو

اقرأ ١٩٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٩٧ – مايو سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

توطئة

عاشت الإنسانية فى سيرها الطويل على هَدْى المفكرين والمصلحين . تتغذى بآرائهم وتنتعش بأفكارهم ؛ تنتقل من طور إلى طور ومن حال إلى حال حتى تبلغ المثل الأعلى فى حياتها ، فهى أبداً قلقة تفتش عن حل لمشاكلها ، وقانون لأوضاعها لعلها تقع على السعادة الحقيقة التى تنشدها من وجودها . فترتفع عن البهيمة والحيوان إلى ذرى رفيعة ، خلقت لها ، فهى تشكر لهذه الرؤوس المفكرة والأقلام المدبرة والعقول النيرة عظيم ما أسدت إليها من عصارة الفكر وخلاصة الإلهام ؛ لأنها ركزت فى سبيل الإنسان أنواراً يستضىء بها فى ظلمات العيش ، وصوى يسترشد بها فى الطريق الطويلة الوعرة .

وإذا كانت القرون تلد كبار الأعلام فى عصر ، وترسلهم مبشرين فى قلة ، فهى تعتز بهم أبناء مخلصين وقادة محسنين وفلاسفة إنسانيين تردّد أياديهم على الأيام وتذكر آراءهم فى كل حين ، وتترجم لحياتهم ، وتعرض لآرائهم وآثارهم ، لعل

الأجيال تقتدى بهم وتستلهم بأقوالهم وتهتدى بنصائحهم . فلا يقف الفكر عن البحث ، والقلم عن التأليف .

وفى هذه الرؤوس النيرة التى ولدت لخير الإنسانية أعلام درجت على الألسنة من أقدم العصور ومختلف الأوطان . لا يختص بهم عصر أو قطر . ولا تستبد بهم لغة دون لغة . يحسن بالكتّاب أن يعودوا إليهم فى الحين بعد الحين باحثين ومعلقين يرسلون فى أممهم وشعوبهم خلاصة زادهم الفكرى . لإثارة النفوس فى العودة إلى خير ما فيه . وتحريك العقول إلى النظر فى أجمل ما عنده . كما تستعيد الآذان لحناً مبدعاً إنسانياً يرتفع بالقلوب إلى مشارف الجمال . أو كما تنظر العيون إلى ألواح بارعة عظيمة تسمو بالأرواح إلى أبدع المواطن فى الإلهام . فإننا اليوم نحب أن نعيد إلى الآذان موسيقا رفيعة تشنف السمع فى سموها . ونحب أن نعرض على الأبصار لوحة رائعة تبهر العيون بسحرها . فنرسم خطوطاً كبيرة لسيرة إنسانية ليست من أقل السير جمالا ، وليست من أعظمها سحراً . ولكنها سيرة إنسان عاش فى الشعب ؛ وقاسى من ألم البشرية وشرورها ما قاسى ، فخرج على الكون بآثار نبعت من قلبه وفاضت من عاطفته ، فرسمها فى كتب قلقة تضطرب بين الفلسفة والفن والعاطفة . وتضطرم بالشعر والأدب ؛ تلك

سيرة جان جاك روسو وآثاره .

فقد ولد يتيماً : وعاش مشرداً ، وقضى وحيداً ، وخلف كتابات حكم عليها المعاصرون أحكاماً متناقضة : دعا بعضهم إلى إحراقها وإتلافها . ودعا بعضهم إلى قراءتها والتلذذ بها ، فلما كانت الثورة الفرنسية حملت آراءه كما يحمل القديس إنجيله : وترنمت بها على مذابح الإقطاع وموائد الحكم ؛ كما يترنم المؤمنون فى بيوت العبادة على عطر الإيمان وأرج الإخلاص وعمق التفكير .

وتلفتت إليه الباحثون الغربيون فأرسلوا كتباً كثيرة تعمر خزانة كاملة ، ترصدتْ لعيشه على الدقائق والساعات والأيام ، ووقفت لآثاره حتى فهمت السطور والحروف وما وراء الكلمات وأحصت أنفاسه فما غادرت صغيرة ولا كبيرة . وقد أردنا أن يكون للعربية نصيب فى التأليف عنه يقف لعصرنا الحاضر ، فأرسلنا هذه الصفحات القليلة الميسرة تظهر فيها رأى ابن الشعب ، وفلسفة المناضل الاشتراكى ، وثورة المظلوم ، وعبرة المضطهد الهائم والشاعر الكاتب ، ليشترك الجيل العربى فى فهم الأسس التى نعيش على خيراتها ، والآراء التى نردد منها صباح مساء فى خطبنا عن العدالة والاشتراكية ، وفى مقالاتنا عن الجمال والخير والشر . فإننا ورثنا من عصارة الفكر ما أغنانا ؛ ومن الخير أن

نرجع إلى الوارثين فنبسط العصر والرجل والآثار ، فى حياة واحد منهم يعدّ من أعظم الأغنياء فى الفكر ، وإن كان من أبعد الكتاب موضعاً فى التعاسة والألم والشقاء ، وأقربهم نفساً إلى الإنسانية الحالمة المفكرة المخلصة .

سامى الدهان

العصر

عاش القرن السابع عشر للميلاد على أفكار متدينة ، وكتب ترفع للكنيسة مناراً وقدسية ، وخاصة فى فرنسة ، حتى إن أكثر أدبائها لهذا العصر كانوا من رجال الكنيسة ، مثل بوسويه ، وفنلون ، وفليشيه ، ووقف غيرهم من رجال الكنيسة موقف الدفاع والإكبار مثل باسكال ولابروبير . وكان سائرهم من المؤمنين حقاً مثل كورنى وراسين وبوالو . أما موليير ولافونتين . فكانا على نمط مختلف ، يقفان من الفكر فى استقلال وحرية ، بين بين ، لا يؤمنون فى عمق ولا يجرون ذيول الإلحاد تيهاً . ولكن ريح الفكر الحر بدأ يدب فى النفس ويجرى فى الصدور ويمشى تحت الأرض .

فلما كان القرن الثامن عشر تبدلت النظرة إلى الكنيسة والدين ، فلم يعمد أكثر الكتاب إلى الدفاع عنهما ، وإن كان كثير منهم يؤمن فى عمق ، ولكن قلمه لا يجرى فى الحديث عن هذا الإيمان إلا نادراً ، وذلك مثل مونتسكيو وبوفون . ونشأ كثير منهم يؤمنون بالله على أساليب شخصية جديدة ، فبعض يفلسف الفكرة عن طريق العقل ، وبعض يعمل العاطفة .

وكانت جماعة من المفكرين تكره الدين على إطلاقه مثل ديدرو وهولباخ ودالمبير .

وسبب تبدل النظرة إلى الدين وانفصال الفكر الحر عن الكنسية يعود فى أغلب الأمر إلى المناقشات الدينية التى سرت فى القرن السابع عشر ، ويمتد إلى الخلاف بين الفرق المسيحية وشيعها . ويرجع إلى الحياة السياسية التى سيطرت على فرنسة آنذاك . فقد ثار الوجدان لما رأى عن تناقض فى الحياة ، ففيها غنى وفقر ، وترف وذل ، وبلاط وعامة . وتحركت النفوس قلقاً لحال الأمة وقد أنهكتها الحروب وأفقرتها النفقات . وساقها لويس الرابع عشر إلى سلسلة من الآلام والجروح صرفت الناس عن الملكية ، ودفعتهم إلى نقدها سراً وفى قرارة النفوس ، فأصبحت فى أعين الشعب لا تمثل آراء الأمة ، ولا تعمل لخير الوطن ، وإنما لقبضة من الأفراد ، وتسعى لشرذمة من الناس تنفق على كاهل المكلف ، وتبذخ على حساب الفقير . فلما مات لويس الرابع عشر سرت فى الشعب الفرنسى موجة من القرار ، وتنفس الصعداء ، ولكنه كان يعيش على أمل جديد ، ويعلق الآمال على المليك الوريث لويس الخامس عشر ، فلما رآه وعرفه انصرف عن الملكية إلى غير رجعة ، وبلغ إليه الكفر بالبلاط . وكره الملوك بالقدر

الذى أحبهم به أمس .

وهنا جرت فى الصدور فكرة الإصلاح والتبديل ، وقامت آراء جديدة فى النقد وعاش الناس يترقبون فجراً جديداً يطل عليهم من عالم الغيب كمنقذ لأوضاعهم ومخلص من كروبهم ، ومطلق لحريتهم . وعبر بعض الكتاب عن هذه الآراء ، فكان أشدهم صراحة وانطلاقاً « ديدرو » حين هجم على الدين والكنيسة . فحمل فى سطوره آيات النبوءة للثورة المنتظرة . فقد جرؤ فى الهجوم على حصون الدين وأسوار الكنيسة ، وسدد سهامه إلى السدود المنيعة . فطما السيل وحطم السدود . وتوجهت الأنظار إلى تهديد ملكية السماء وملكية الأرض ، لأنهما حبلان موصولان إذا انقطع أحدهما سقط الآخر .

وتفتحت العيون والأذهان لتقبل الآراء الجديدة فى علم النفس وفى الأخلاق ، وفى العناية بالمجتمع ، بعد أن كانت العناية مقصورة فى القرن الماضى على الفرد وتكوينه ، وانتقلت فكرة الكتاب إلى العناية بالنثر والتأليف فيه لأنه عملى واضح والشعر خيالى مبهم ، فقام النثر الخطابى ، وسارت العبارة القصيرة وأصبح الإنشاء فى ألوان من الفن والصور قلما برع فيهما الكتاب . وتفتحت نوافذ العقل على الأمم المجاورة ، وتلفت الملوك والأمراء فى تلك الأمم إلى ثورة الفكر وانطلاق العقل فى

فرنسا ، وشعروا بأن الأرض تهتز تحت العروش . وأن الشعب يستيقظ على النور الجديد ، وأن الإشعاع جميل مشرق شديد الحرارة ، ولكنه يستطيع أن يحرق القصور وأن يطير بالصولجان .

وتحلق الناس حول المقاهى يستمعون إلى الكلام الجديد . وتجمع الأمراء والكبراء حول المفكرين ينظرون إلى العيون الحالمة ترسل الأفكار الجديدة فى ثورة وفى عنف ، فكانت صالونات (أبهاء) وكانت حلقات . وتلفت المثقفون إلى الأفكار وإلى الآثار . فنشأ عصر جديد ، أصبح العمل فيه للعقل والفكر ، لا للحرب والقتل والدمار والفتك والانتصار . وتقرب الإنسان من الإبداع والنظر والمناقشة والحجاج ، يريد أن يفهم كيف ولد وكيف عاش ؟ ولماذا كان وكيف يجب أن يكون ؟ فسالت الأسئلة بكل سبيل وانطلقت فى كل فج ، واشترك النساء والرجال فى أحياء سهراتهم ومجتمعاتهم فى الاستماع إلى هذا السبيل الجديد الذى اكتسح الأسوار وفضح الأحوال ، وكشف عن كثير من الأسرار .

وأصبحت الأحاديث بعيدة كل البعد عن الحديث فى الكنيسة والخالق فحسب ، وإنما غدت فى المخلوق وفى المجتمع ، وفى السعادة والشقاء . كأنها تبحث عن ذاتها أو كأن الناس يعيشون من جديد بعد رقدة طويلة فى أجساد كلفت بالزينة

والترف واللغط الضائع ، والأحاديث الجوفاء . والبحث عن المآكل المتنوعة والألبسة المزركشة والبيوت المزخرفة ، والنزهات داخل البيوت بين الصور الزاهية وعزف الموسيقا الهامسة .

وغدا الإنسان يفتش عن الإنسان فى قرارة نفسه ، ويبحث عن السعادة فى طوايا قلبه ، ويسأل عن المستقبل والمصير فى سبيل إنسانية مثلى ، يسود فيها الإخاء ، ويعلو فيها التساوى. وينتصر فيها الاخلاص ويموت الرياء والنفاق ، وتعم العدالة الاجتماعية ، وتقوم الاشتراكية المثالية . فلا فقير يموت من قلة الغذاء وندرة الكساء ونضوب المال ، ولا غنى يموت من بطنة المأكل ووفرة الملبس وهجوم اللذائذ المترفة . وصاح صائح بالناس عودوا إلى الطبيعة فهى أمكم الغنية الحنون ، وهى مصدر سعادتكم المرجوة ، ومنبع أحلامكم الحلوة ، وفكروا فيما أنتم فيه ، إن الشجر والماء والحضبة والتربة ، والريح والسماء كلها دثار وغذاء ومعين ومدرسة وملعب ، وقصر عامر بالهناء والسعادة ، وبيت يغمره النور والنشاط والخير . إن الإنسان ولد حراً كريماً ، ويجب أن يعيش حراً كريماً ، له حقوقه كاملة ، يتمتع بخيراته وملكه وعقيدته وله أن يقول كما يتنفس ، وأن يعمل فى كرامة ، وأن يعيش مع أخيه الإنسان فى اشتراكية عاقلة وديمقراطية كاملة .

وكان هذا الصائح من صميم الشعب ؛ عرف الألم والبؤس والشقاء والكفاح والنضال ورأى تباعد الطبقات ؛ وفوارق الحقوق ؛ وعرف كيف تهدر الحريات ؛ وكيف يضطهد الأحرار ويلجم الكتاب ، وتسكت الأصوات الحرة . فأنشأ كتباً فى الدفاع عن الإنسان وفى رسم حقوقه ووصف تربيته ؛ وتصيّد عواطفه وأحلامه وأمانيه . فكأنه أراد أن يحدد المدينة الفاضلة لبنى قومه وجنسه وللبشرية كلها .

إنه جان جاك روسو ؛ ولد فى سويسرة ؛ وسكن فرنسا وتنقل فى أوربة ، وقضى فى العزلة شريداً طريداً ، فكانت حياته جديرة بالدراسة والنظر ، وكانت كتبه جديرة بالقراءة والفهم ؛ وكان نضاله خيراً للبشرية ؛ وفى الصفحات التالية تصوير لعيشه وتحليل لآثاره ؛ من خلال ترجمته لحياته ؛ وسطوره فى كتبه . والدراسات التى أنشئت عنه ، عسى أن يكون فيها نفع للناس . وتسجيل للمبادئ المثالية وانتصار للأدب والفكر .

الطفولة

أقام « كالفين » حوالى سنة ١٥٣٦ للميلاد، فى جنيف بسويسرة ، كنيسة كبيرة يدعو فيها إلى مذهبه ، فأقبل إليها المؤمنون حتى ازداد عددهم ، واحتاجوا إلى كنائس يلجونها ، وبيوت يسكنونها ، فتوسعت المدينة ، وكبرت ، وأضحت موطن العبادة والجمال والخير ، خلال حقبة من الزمن ، تحول السكان بعدها إلى المدنية وللذائذ البشرية ، وبقيت ألسنتهم تلهج بشىء من الدعاء القصير ، والصلوات المقتضبة ، يتنسمون أريج الحياة المادية ، وينصرفون عن الدين والكنيسة على مرّ الزمان ، حتى غدوا قريباً من سكان الحواضر الغربية ، حباً للدنيا وسعياً وراء العيش اللذيذ .

وكان الناس فيها خلال القرن الثامن عشر على طبقات ، وكانت المدينة على شىء من الجفاف والعنف وحالة أهل الريف يراقب بعضهم بعضاً ، وتراقبهم الشرطة على دقة وتعقب ، وتسهر الحكومة على إنقاذ النفوس من اللهو الشرير لأن من أعمال السلطة أن تفسد عمل الشيطان فى المواطنين — كما كانوا يقولون — ولكنها كانت إلى هذا الحذر فى ظاهر الأخلاق

والعادات : بلد الحرية ، ومنبع الدين البروتستانتى : يلجأ إليها من يحبون الجبل والبحر والثلج والهواء العاصف ومن يعشقون حريتهم ، ويعنون بما تمتلئ به العين والنفس من فتنة وسحر .

وقد هاجر إليها فيمن هاجر ، سنة ١٥٥٠ ، رجل يدعى « ديدييه روسو » هو جد كاتبنا ، قدم من باريس هرباً من الفظائع الدينية التى حلت ببلاده ، وتخلصاً من اضطهاد الكثلكة للبروتستانتيين ، فاستقر بجنيف ، وأعقب فيها ، وكانت منه هذه الأسرة .

ويبدو أن هذه الأسرة عاشت كصورة للحرية والانعتاق من الدين والجرى وراء المرح والحياة العريضة ، فاصطدم بعضهم بحراس الفضيلة ، وأثخنت سجلاتهم بجراح الأخلاق ، واستوى فى ذلك نساء الأسرة ورجالها .

وقد نقل إلينا أن جد كاتبنا « دافيد روسو » ذهب مرة إلى مرقص فى الليل مع كمانه ، ولبث إلى ساعات متأخرة . كما حدثنا النقاد ، أن جد أمه « جاك برناد » تحرش بفتاتين وترك أثراً لايشرفه . أما أبوه « إسحق روسو » فكان ساعياً (ساعاتى) يعيش طوراً معلماً للرقص ، وطوراً يعيش لحرفته . وأطواراً كان على حياة غريبة خارجة على قوانين جنيف ، إذ كان يسكر ويعربد ويخاصم الناس فى الشوارع . وقد شغل المحكمة ثلاث مرات بمنازعاته .

وتزوج « إسحق روسو » سنة ١٧٠٤ ، بسوزان (برنار) ولم تكن أنصع منه فى ماضيها بالنسبة لألسنة تلك المدينة . فقد قيل إنها ذهبت إلى المسرح مرة مقنعة برداء قروية ، وقيل إنها علقت بشاب مغامر ، وكانت موسيقية جميلة يحيط بها المعجبون .

ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الأب ميالا إلى الكسل ، خفيف الروح ، لا يبالى ما يصنع ، فاستخفه الهوى ، وسافر بعد عام من زواجه إلى إستانبول ، وفيها صنّاع للساعات من أبناء جلدته يحرسهم راع بروتستانتى من جنيف ، فسكن حىّ « بيرة » ولبث فيها ست سنوات ، وزوجه فى جنيف تتنازعها الأهواء والميول ، ولكنها فقدت أمها ، وبقيت وحيدة فأرسلت تلح فى استدعائه إلى قربها ، فعاد سنة ١٧١١ ، على كره منه لأنه كان يعشق المغامرة والرحلة والتنقل فى كل مهاب النقلة ومعانيها ، لم يسأل حين عاد عما كان من أمر زوجته خلال غيبته ، لأنه كان يعرف من حالها وهى صغيرة ما تشهد به أحداث الشرطة ، وكان يعرف كذلك من أمر أختها « تيودورا » ما يذكره ببالغ الأسى حين وضعت مولوداً بعد ثمانية أيام من زواجها .

وفى سنة ١٧١٢ ، بعد عام من عودة الأب إلى جنيف

وضعت زوجه غلاماً ثانياً سماه « جان جاك». ولكن حمّى النفاس قتلتها بعد ثمانية أيام من ولادة الطفل . فكان قدومه الكريم إلى هذه الدنيا قاتلا لأمه . فكتب فى اعترافاته حين أسنّ يبكى حظه : « وكنت الثمرة التعيسة لعودة أبى ، فولدت ضعيفاً مريضاً ، وإن ولادتى كانت أولى تعاساتى » . وأصاب الأب قلق مرير وحزن كبير ، فقد عشق زوجه قبل أن يتزوج وعرفها حين كانا طفلين يمرحان فى الثامنة من عمرهما ، يتنزهان معاً فى طرق جنيف . واشتدت الألفة بينهما حتى تملك كلا منهما حب عميق زاده ضراماً إباء الأهل من تزويجهما ؛ فأقسما أن يكونا لبعضهما ، وصبرا طويلا . فكان هذا الزواج وأعقبه فراق بينهما خلال سنوات ، فإذا عاد عاماً واحداً كان فراق أبدى لا اجتماع به .

ولسنا ندرى كيف تعزّى الزوج العاشق عن موت زوجه ، و « جان جاك» نفسه لا يدرى كذلك ، وإنما يقول إن أباه لم يتعز أبداً عن هذا المصاب ، ولكنه كان يرسل التنهدات كلما ذكرها ، ويذرف الدموع سخية كلما قبل ابنه فرأى صورتها فيه . فلما بلغ الطفل السادسة من عمره ، رأى كيف كان أبوه يتسلى بالقراءة ، ويشترك ابنه فيها ، فكان يقرأ له حتى شروق الشمس قصصاً وحكايات : « ولست أدرى ماذا كنت

أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو السادسة . ولا أذكر كيف تعلمت القراءة ، ويقول : « وكانت أمى قد خلفت بعض قصص غرامية . شرعت فى قراءتها مع أبى . بعد العشاء لكل ليلة . وكان الهدف من ذلك أول الأمر أن أتدرب على القراءة . ولكن التدرب دب فىّ فأصبح عشقاً . وأصبحت أتناوب مع أبى القراءة من غير انقطاع . فننفق الليالى بأكملها فى ذلك . وما نتحول عن كتاب إلا حين نفرغ منه . فيقول أبى فى استحياء وهو يسمع زقزقة العصافير مع إشراقة النهار : هيا بنا إلى النوم » .

واكتسب الطفل بذلك لذة المطالعة وهو فى السادسة من سنيه ، حتى تعود إلفة الكتب وصحبة القراءة ، فتفتحت أحاسيسه ونمت مشاعره ، ودرج خياله ، ولعبت فى صدره صور الروائيين ، وشب فيه شعور بالتفكير المبكر ، لما يقرأ ويسمع . وكان الأب يشرح لابنه ما فى الكون من عجائب وغرائب ، وما فى الطبيعة من سحر ومن عظمة .

وفى السابعة من سنيه تحولت إليه خزانة من كتب كذلك كانت حصة أمه من أبيها ، وفيها آثار قيمة دسمة ، جمعها قس عالم ، ومنها « تاريخ الإمبراطورية والكنيسة ، ورسالة فى تاريخ العالم لبوسويه ، وحياة مشاهير الرجال لبلوتارك ، وتاريخ

البندقية و بعض مؤلفات موليير وغيرها . . . » .

فراح الطفل فى سنه يقرأ هذه الآثار العظيمة : « فنقلت هذه الكتب جميعاً إلى غرفة أبى . ورحت أقرأ منها عليه وهو يعمل ، وأستوعبها فى شكل نادر » . وهذا حظ عظيم أصاب الطفل ، بل لعله كل حظه ، إذ تفتح قلبه لقراءة الكتب العظيمة وهو فى هذه السن الصغيرة التى يلعب فيها الأطفال ، ويحطمون دماهم ، أو يلوثون ثيابهم ووجوههم فى التراب ، فتنهال عليهم القبلات أو اللعنات ، ويستسلمون بعدها لأحضان أمهاتهم . أما طفلنا فما عرف أما تحنو عليه وتحوطه بالألعاب والتوجيه ، وإنما عرف أباً تركه يتسلى باللعبة الوحيدة التى كانت لديه وهى القراءة ، حتى لكأنه أراده كاتباً قارئاً ومؤلفاً ، فشق له السبيل من غير أن يعرف .

ويعترف الطفل حين يكبر بأن هذا الاطلاع أو هذا الحوار الدائم الذى كان يدور بينه وبين أبيه قد وجهاه إلى الحرية والإباء ، فأصبح لا يطيق روح الاستعباد والرقّ ، وهو سبب عذابه واضطهاده فى مستقبل أيامه — كما يقول فيما بعد — .

واتصلت أفكار الصبى برومة وأثينا ، وعشق سير العظماء ، حتى ليقول إنه حسب نفسه إغريقيا أو رومانيا ، فذاب فى

الشخصيات التى كان يقرأ عنها أو يقرأ لها ، وأصبح كما قال يشعر قبل أن يفكر .

ولم يكن الفتى ينصرف إلى اللعب بالكتب والعبث بالقراءة إلا مع أبيه : أما عمته فكانت تغنى به ، وتجلسه بقربها ، وتغنى له . فسرح خيال الصبى مع هذه الأغانى الحلوة ، إلى وجه وصفه فقال فى عمته : « ولقد طبعتْ بشاشتها وأنسها ووجهها السمح نفسى بطابع عميق ، فخلفت فى ذهنى صوراً لها ما أزال أتمثلها فى شكلها وحركاتها ونغمة صوتها » . ويقول إنه كان مديناً لها بميله بل ولعه بالموسيقا . فطردت عن نفسها وعن محيطها الوساوس والكآبة ، وظلت أغانيها تخفق فى جوانحه كلما ذكر أيامها على مر السنين ، حتى ليحدثنا أنه أصبح شيخاً ، وهو يترنم بأغانيها ويبكى لذكرى نغماتها فى قلبه وأذنه فكأنها خلقت فيه ذوق الموسيقا . كما خلق فيه أبوه ذوق القراءة والتأليف ، وهما منبعا حياته ، ومعينا عمره ، أخذ عنهما وحدهما فى صباه قبل أن يتأثر بأى مخلوق فى الكون ، فلم يكن قد اختلط بالناس إلا بنزهات قريبة مع الخادمة (جاكلين) .

ويبدو أن الحس المرهف لهذا الفتى كان أشبه بلوحة من ألواح التصوير المخفية ، ما تظهر على النور حتى تطبع الصورة كاملة فى خطوطها كلها ، لا تغفل منها أمراً ، بل كأنه آلة

مسجلة لا تهمل صوتاً أو ضجة حين تفتح للعمل ، وذلك لأنه حفظ كل شيء رآه كما يحفظ « الفونوغراف » من الصور . وحفظ كل شيء سمعه كما يحفظ « الفونوغراف » من الأصوات إذا جاز لنا أن نسمى الجهازين باسميهما الغربيين .

ونتساءل هنا عن مصيره فى الحياة لو قدر لأمه أن تعيش وأن تعنى به وتحنو عليه . وتتلمس السبيل إلى تربيته تربية مثالية . وتحتفظ به فى البيت ، أو ترسل به إلى المدرسة وهى ترقبه وتسهر على خطاه ، وتنظم عيشه من مأكل وملبس ودرس . ولكن الحظ يشاء أن يحرم منها مبكراً ، وأن يحرم بعد قليل من أبيه .

فما بلغ العاشرة من سنيه حتى وقعت الكارثة ، وبدأ الطفل عهداً جديداً فى مطلع العقد الثانى من عمره ، وذلك أن أباه (اسحاق) تأثر بالأتراك ومغامراتهم حين أقام عندهم ، فتنازع فى سنة ١٧٢٢ تماماً ، فى رحلة صيد مع ضابط فى الحرس[1] فصفعه وجرحه بسيفه ، وعبثاً حاول أن يجد مخرجاً قانونياً ينقذ به نفسه من السجن . فاضطر إلى الهرب خارج المملكة ، ولجأ إلى (نيون) . وأودع ابنيه (فرانسوا) و (جان جاك) عند

(١) إننا ننقل مختارين أسماء الأشخاص الثانويين فى كتاب نريده موجزاً ميسراً .

خالهما (غابرييل برنار) .

وهكذا نفى الأب نفسه من وطنه بقية عمره ، وآثر أن يثأر لنفسه ولشرفه على أن يبقى مع ابنه ليربيه . إثر لحظة جنون واستهتار ، تحمّل (جان جاك) بسببهما ما تحمل ، فكتبت مصيره من جديد على حال جديدة . وبذلك فقد الأم وفقد الأب .

وبقى يعيش وحده عند خاله . لأن أخاه الكبير « فرانسوا » هرب بعد أن خلا الميدان وتهدم البيت الأبوى . وكان فرانسوا قد سلك مسالك السوء ، فهجر إلى ألمانيا وضاعت أخباره . ولكن هذا الخال أودع ابنه وجان جاك — وهما فى سن واحدة — فى قرية « بوسى » وجعلهما فى رعاية قسيس بروتستانتى هو « لامبرسييه » على سبعة كيلومترات من جنيف ، فى سفح « جبل ساليف » . وراح هذا المعلم الصالح يلقنهما الواجبات الدينية على طريقة ذلك العصر يقول عنها فيما بعد : « نتلقى إلى جانب اللغة اللاتينية كل تلك السفاسف الداعية إلى الأسف ، والتى تُدفع إلى الأطفال تحت ستار التربية والتعليم » .

وقضى الطفل سنتين فى هذه القرية ، فتبدلت أخلاقه وأصبح يهوى اللعب واللهو ، وأقبل على السرور ، فكأنه عاد إلى الطفولة أو بدأ عهداً لطفولة لم يكن قد عرفها قبل ذلك .

فقد وجد رفيقاً فى مثل سنه أصبح له كأخيه ، يعبثان معاً ويمرحان معاً . فعرف الأنس والحنان والعطف والصبى المرح . والطبيعة الحلوة المنعزلة . ووقع له حادث عجيب رسمه بعد خمسين سنة رسماً دقيقاً . فوصف أخت القس وهى آنسة فى الثلاثين من عمرها . كانت تعنى بتهذيبه ، وتأخذ فى تأنيبه . وأحياناً تعمد إلى تأديبه بالضرب . فأثار هذا الضرب لذة فى جسده وهو فى العاشرة من عمره ، على ما بينهما من سن وفرق . وأضرم الخيال المسرف فى نفسه صوراً خيالية ، فأحبها وكلف بعقابها ، وطفق يذنب لعله يلقى هذا العقاب أبداً . وعلق به هذا الشعور حتى أخريات أيامه . وأحست الآنسة « لامبرسييه » بهذا ، فصرفت الفتى عن غرفتها وعن سريرها ، وأصبحت تعامله كفتى كبير فى كثير من الحذر ولكن الفتى الكبير كان يقر عيناً بهذا الذل ويحبه منذ تلقن هذه الدروس الأولى على يدى الآنسة ، فقد كان ينظر إليها كأم تحمل فى عقابها كل لذائذ الحياة ، وسنرى أثر عشقه لمن يسميها « أماً » خلال حياته المقبلة .

وقد طلبت نفسه هذا العقاب مرة أخرى ؛ حين سألت الآنسة عن مشط فما تحطمت أسنانه ؛ ولم يكن غيره يدخل الحجرة . فأنكر ، وأصر ؛ لعله يلقى منها عقاباً ولكنه هذه المرة اضطر القسيس إلى أن يكتب إلى خال الفتى وأن يخطره بالحضور وإلى أن يعتبر الذنب كبيراً ؛ فهو بدء للكذب . وكان هذا نذيراً بترك القس وأخته والقرية الجميلة ؛ والعيش الحلو ؛ والعودة إلى جنيف .

ورجع جان جاك مع خاله إلى جنيف . ولبث فيها عامين أو ثلاثة ، ينتظر أن يخوض فى مهنة أو حرفة ؛ فكان يسمع الجدل حوله فى مستقبله ، هل يكون صانعاً للساعات أم من رجال القانون أم من القسس الواعظين ، ولعله كان يفضل أن يكون قساً . ولكن هذا يستلزم مالا وسنوات ، وهو لا يملك إلا ريعاً قليلا يأتيه من عقار أمه . فلبث زمناً من غير عمل ، كان خلاله يزور أباه فى قرية « نيون » فيحظى بالحفاوة ، وجميل الاستقبال ، وقد بلغ الحادية عشرة من عمره ، وأحياناً يحظى بلقاء أوانس يكبرنه عشر سنين ، فيمثل معهن أدوار الحب والعشق ؛ ويظن أنه فى هذه السن عاشق كبير ؛ عميق الحب ، ينتشى بالقبل ، ولكنها بدء أحلام الهوى والعبث بالنساء .

وزج به خاله عند كاتب المدينة . ولكنه كره هذه الصنعة فصرفه إلى أخرى ليتعلم النقش على المعادن ، فكان معلمه شديد القسوة فظاً غليظاً . يريده أجيراً . والفتى يريد أن يلم بالنقش والرسم . فاختلفت طريقاهما . وساءت حال الصبي : فلجأ إلى الكذب والسرقة والكسل والنفاق والتهم ، وأحس من نفسه بهذا السقوط . ولكنه كان مسيّراً ليس له اختيار فيما ينتويه ، حتى تعود قراءة الكتب المبتذلة الساقطة . وألف الأهواء السافلة ، فعزم على أن يتخلص من هذه الهاوية . وفيما هو يفكر ذات مساء عائداً من نزهة مع زميلين له ، أقفلت في وجهه أبواب البلد . وسمع البوق ، وكاد يصل ، لكن الحراس منعوه ، فقضى الليل خارج الأسوار .

وفي الصباح قرر زميلاه العودة ، وقرر هو أن يفر إلى غير عودة ، ورجاهما أن يبلغا ابن خاله بقراره ومكانه ، فقد ظل متعلقاً بصداقته له على ما بينهما من بون فهو من أبناء الفقراء المشردين الذين يهيمون في أقبية الصناع الأجراء ، ينالون أجرهم من السياط والإهانات ما يغذي أجسادهم ويقتل خيالهم . فإذا فرّ فإنما يفرّ من سجن ملوّث بضمير هذه الطبقة الجاهلة ، لينطلق إلى فضاء الله الرحب ، فقد بلغ السادسة عشرة من سنيه ، لم يذق خلال أعوامه الأخيرة منها إلاّ الحرمان والجوع .

والتعب ، والقلق . والنحس .

وهكذا نكب بأمه وعمره ثمانية أيام ، ونكب بأبيه وعمره ست سنوات وحرم من بلده وسنه ستة عشر عاماً ، يتفتح قلبه للشباب ، والأمجاد والآمال ، ولكن غده مظلم سحيق بعيد عن أن يحقق شيئاً مما يهفو إليه القلب ويتطلع إليه طموح الشباب إلا بعد لأى وسنين .

الشباب

انطلق الشاب فى السادسة عشرة من عمره إلى فضاء الحرية والاستقلال ، إلى الهواء والريح والطبيعة . لا يملك شيئاً فى جيبه ، ولا يملك فكرة عن غده . يهيم فى الدنيا ، ويفتح كتاب حياته الجديدة فإذا بسطور غامضة مبهمة لا يفقه منها شيئاً ، فماذا يصنع وماذا يعمل . وهو وحده ، يحمل فى قلبه نفوراً من تجاربه ، فقد ظن هؤلاء الناس به الغباء وقلة الذكاء ، وتلقوه جسداً من غير روح ، وصانعاً من غير فكر . ولو انصفت الحياة لجعلت له أبوين يُعنيان به ، أو لهيأت له أسرة تكفله ، أو لمكنت له مؤسسة تضمه . ولكنه يتيم فقير شريد ، يملك كل مقومات النجاح فى قلبه وعقله ، ولكن الذين يفهمون القلب ويقيمون وزناً للبحث عن العاقل وغير العاقل لم يقعوا فى طريقه ، وإنما صادف آلات إنسانية تتحرك بحثاً عن يد تعمل وجسد يشتغل فى رق أو حرية ، فى لطف أو عنف ، « وجان جاك » بعيد عن أن يحقق رضاهم أو يكسب عطفهم ، لأنه جُبل من طينة أخرى ، رقيقة حساسة مرهفة .

وشرع الشاب يبحث عن قلب يعطف عليه ، أو نفس

تفهمه . أو روح تتفق مع روحه . فلم يكن يطمح إلا أن يكون أثيراً لدى رجل أو امرأة ، صديق أو حبيبة ، جار أو معين . فأين يجد هذا الملاذ ؟ غشى دور أهل الريف . وأنس بقربهم . وعاش فى كرمهم وضيافتهم . فأحب البسطاء والسذج والعامة . وقادته خطاه على قيد فرسخين من جنيف إلى قرية صغيرة فى السافوا . فطرق الباب على قسيس من أسرة مشهورة «ده بون فه ر Pontverre» . وتلقاه القس بالترحاب وحدثه عن زنذقة «جنيف» وبعد أهلها البروتستانت عن الكنيسة الكاثوليكية . وأطال فى حديثه عن الكاثوليك . وهو يقدم له العشاء والنبيذ ، ويدعوه إلى اعتناق مذهبه ، وما كان الدين ليخطر ببال الشاب . ولكن «جان جاك» سكت وسكت حتى ساقه القس إلى عرض جديد . فقال له : «إن الله يدعوك ، فاقصد إلى «أنسى» وفيها تجد سيدة طيبة محسنة ، جعلها كرم الملك فى مركز يمكنها من إنقاذ الأرواح المخطئة» .

وكانت هذه السيدة هى «مدام ده ڤوارانز[1]» ، تزوجت خلال اثنى عشر عاماً ، ولكنها عاشت خلالها تعيسة مع زوجها فهجرته وهجرت البروتستانتية ، واعتنقت الكثلكة حديثاً على أن

---

(١) هذه هى لفظة الإسم بلهجة أهل البلد «Warens» كما ينقل مؤرخو الأدب لذلك العهد .

تنال معاشاً قدره ألفا فرنك تتلقاها من ملك سردينية . فسعى الشاب إليها قلقاً مكرهاً يدفعه الجوع . وتلح عليه الحاجة ، وتسوقه الأبواب والأسوار المغلقة دونه فى الحياة ، وبلغ إليها يحمل وصاة القس . إلى عبارات تتلجلج فى صدره من الكتب التى قرأ . والخيال الذى نما . والبلاغة التى تتحرك فى لسانه . وهو يتصور أن يلقى سيدة مهدمة عجوزاً ، عابسة ، متعصبة .

ولكنه ذهل حين رأى صورة تفيض بالسحر . فى عينين زرقاوين جميلتين . واون باهر . وعنق ساحر . وجمال فى رأسها وصدرها ويديها ندر أن يقع فى لوحة رسام إلا للفتنة والإغراء . وكانت مربوعة القوام ، متقاربة منسجمة التقاطيع . قد بلغت الثامنة والعشرين من عمرها . وكان هو — كما نقل إلينا — حسن القوام ، حسن التكوين ، ذا فم صغير وعينين صغيرتين غائرتين ، يشع بالشباب الطافر ، من غير أن يكون جميلا بارع الجمال . فنظرت إلى الرسالة وإليه ، ثم أشارت إليه بأن يدخل البيت وأن ينتظرها لتعود من صلاتها .

وقعت السيدة من نفس الشاب موقعاً عظيماً ، فكأن الروحين التقيا ، أو كأن الماضيين فى نفسيها المغامرة ونفسه القلقة قد تآلفا ، فوثق بها منذ النظرة الأولى . وعلق بها وهى تسأله عن مستقبله ومصيره ، وما كان من ماضيه . فتزيده اشفاقاً

وحناناً . ويزيدها نظرات مخلصة تتشبث إليه فى البقاء بقربها . ولكن السيدة اقترحت أن يقصد إلى « تورين » حيث ينضوى تحت لواء الكنيسة ويجد ملجأ روحياً فى دار الضيافة هناك بإيطالية .

فقصد إلى ذلك الدير . يتمتع خلال الطريق بمناظر ساحرة ، برفقة كاهن وزوجه . يحمل مبلغاً من المال تسلمه من السيدة مع نصح كثير ، ومستقبل مرصود يكفل له العيش فكاد يطفر فرحاً ، ويطير قلبه بالأحلام والآمال التى يلقاها بعد قليل مع أنه كان يسير على قدميه عامة يومه ، حتى بلغ المدينة . ودخل الدير فإذا بأفاقين ومتشردات يعمرنه سعياً وراء ما قصد إليه صاحبنا من ملجأ وملاذ فحسب .

وهكذا قدر للشاب أن يعيش ثانية مع رجال الدين بعد أن عاش مع القس « لامبرسييه » ، ولكنه هنا أغلقت وراءه الأبواب الحديدية ، وقرعت سمعه أجراس القداس ، وملأت أذنيه صلوات وصلوات ، فعرف لأول مرة حياة جديدة ، هى حياة الكهنوت والرهبان ، يستمع إلى الوعظ وسير القديسين . ويلقى من غرائب العيش وملابسات المراهقة ما تتقزز منه النفس . فحسب أن الدير غدا سجناً ، وأصبح معيناً لآراء كريهة ضد القسس وبيوت الدين ظهرت فى آثاره وكتبه واعترافاته ، وخاصة

ضد المذهب الكاثوليكى .

وانطلق الشاب من الدير يحمل عشرين فرنكاً هى كل الصدقات التى دسها الأب فى جيبه ليعيش مسيحياً صالحاً صادق الولاء لشرف العقيدة . مع التمنيات الوافرة والدعوات المتلاحقة له بحظ سعيد — كما قال فيما بعد فى اعترافاته — وعاد من جديد إلى البؤس والتشرد يبحث عن مأوى وعن مورد . فيعرض خدماته من حانوت إلى حانوت ، ومن بيت إلى بيت ، حتى وقع على سيدة إيطالية حسناء بارعة الفتنة ، هى مدام « باسيل » قبلته فى خدمتها . فسرعان ما أعجب بها ، وفتن بما كان يبدو من زينتها وصدرها ، وهى تكبره بخمس سنوات ، فأحبها وعشقها وركبه الحياء والخجل ، وشعرت بما دار فى خلده ، فصرفته عن البيت . وهو يحمل فى صدره أول حب عارم حقيقى بعد أن بلغ الشباب ، وأصبح يدرك طعم الحب — كما قال — .

وانتقل بعدها إلى خدمة « الكونتس ده ڤارسالى » وقد تعود المهنة أو كأنه قدر له إلى أن ينتقل من خدمة إلى خدمة ، يتعثر ويخطىء ، فهو خادم يحمل قلب شاعر مرهف حساس ، بل إنه حقير المظهر فقير الجيب فى قلب غنى بالعواطف والعشق ، لا يستطيع أن يجمع بين الحاجة والحب ،

إذ ينسى أنه يخدم ليعيش لا يعيش ليحب ، فكأن النساء كن كل شيء فى سعيه وراء الحياة ، خلال هذه الحقبة .

وساقه القدر هذه المرة إلى خدمة « الكونت ده جوفون » فى مدينة « تورين » نفسها بإيطالية ، حيث أصبح صديقاً لابنه ، يمارس معه اللاتينية وآدابها ، ويتلقى عنه معلومات نافعة ، ويكون له ككاتب للسر ، فيتقن الإيطالية على أرقى أساليبها ، ويكتسب المعرفة بالكتب الجيدة فيها . فحظى عند سادته بالحفاوة والحب ، وأدرك أنه خلق للمعرفة لا للخدمة ، وأن الذين يفهمونه قدير تفعون به إلى مستوى أبناء النبلاء ممن يطمحون إلى الوزارة والسفارة ، وأنه على استعداد كبير ومواهب واسعة ، يبادلهم رأياً برأى وتفكيراً بتفكير حتى كان له منهم الاحترام والتقدير ، مما رد إلى نفسه اعتبارها ، وأعاد إليه الطمأنينة والثقة . فهو يستطيع أن يسير فى طريق الثقافة والمعرفة ، وأن يستثمر ما كان لأبيه من قراءات فى نفسه ، وما كان لخالته من موسيقا فى صدره وما لقى من تجربة فى نفعه وتثقيفه . فقد وقف على الدين وشهد الطبيعة ، وتحرك قلبه للحب والحرية والحنان .

ولقى فى تورين صديقاً قديماً له ، شديد المرح ، واسع الحيلة ، قوى الذكاء شغل وقته ، وحبب إليه الهجرة إلى جنيف وترك هذا البيت على ما كان له منه من ثقافة عريضة ، ومعرفة

دسمة ، فآثره على كل شيء ، وعاد إلى الطريق الساحرة ، ليصافح الجبال ، وينتعش بالمناظر ، ويتلذذ بالسفر ، فقد خلق للرحلة والتقلة ، وكره إليه القرار والهدوء ، وهو قد بلغ التاسعة عشرة من عمره ، على عتبة التعقل والفهم .

وهكذا ودع الحاضرة الحلوة ، وما عرف من نساء حسان ، ومغامرات جميلة ، وسافر إلى مدام « ده فواران » يؤثرها على كل شيء ، وقد كتب إليها من قبل عن حاله الهانئة فى « تورين » فكيف تلقاه ؟ وبماذا يجيب على طيشه ؟ ولكنه وفد إليها فارتمى على قدميها وألصق شفتيه بيديها ، فزال عنه كل قلق ، وبات يروى لها ما حدث فى أسلوب مثير محبب ، دفعها إلى استقباله فى حنان وحب ، وقرّ عندها قراره لأول مرة منذ عرف التشرد والحاجة .

وعرف الشاب معنى الصداقة ، وتفتح قلبه للألفة ، فاستسلم للراحة وقد نشدها خلال سنين ، وتوطد بينه وبين هذه السيدة ودعميق صحبه طويلا وصحبها حتى الموت . فقد كانت تدعوه « صغيرها » وكان يدعوها « ماما » حتى لكأن الفوارق انمحت بينهما ، بل لكأنه عاش من جديد على متن ذكرياته مع الآنسة « لامبرسييه » وهى تكبره ، فيحبها « كأم » ، ولكنها لم تبادله حباً بحب ، كما فعلت هذه الصديقة الجديدة ، والأم

الحسناء الصديقة . وكذلك انتصر الشاب فيما أخفق فيه لصباه ، وكسا حبيبته لقب « ماما » ليحقق الأمنية التى ضاعت ، ويثأر للفشل الذى لقى وهو صغير ، فحرم أمه وحنانها وحبها ، وعوضه الزمان « أماً » تحبه ويحبها ، ولكن على أسلوب مختلف ، يجمع فى برديه حب الطفولة والشباب ، حب البراءة إلى حب غير بريء ، ولكنه يسد فراغاً كان يحسه منذ سنين ، ويتمنى أن يملأه منذ حين ، فكان له ما اشتهى ، إذ يقول إنها كانت له أرق أم ، يلاطفها بأدق ما فى الكلمة من معنى وأوسعه ، ويحبها فى أجمل دلائل الحب ، فيمزج الدموع بالقبل ، ويقدس الأرض التى تطؤها ، ويحيا معها حياة عاشقين لا يكدرها إلا التفكير والخوف بأنها ستزول يوماً ، وكذلك يبكى العشاق من جزع أن لا تكون لذائذهم طويلة الأمد .

ومن الغريب أن الذين تعرفوا إلى الشاب رأوا دائماً أن يصرفوه إلى غرض واحد ، وهو أن يصبح قساً ، كأنه لا يصلح لغير ذلك ، أو كأن الثقافة حينذاك تقود المرء إلى الدين وإلى أن يلبس ثوبه ، وأن يعيش من وراء ذلك ، فقد انساقت « مدام ده فواران » إلى أن تعرض على الشاب أن ينخرط فى السلك ، سعياً وراء حريتها فيمن تستقبل من رجال ، وحرصاً على مستقبل الشاب الذى أحبها من كل قلبه الممتلئ وجيبه

الفارغ ، فهى كذلك تحب أن تعيش فى معبد الحب : تفنى جسدها على مذبحه تستغل جمالها وشبابها فيما خلقت له كذلك . فتوجه الشاب إلى المعهد الدينى الذى اختارته له حزيناً مضطراً يحمل معه كتاباً واحداً ، استعاره من « ماما » الحبيبة وهو كتاب فى الموسيقا . فقد أعادت إلى نفسه حب هذا الفن ، وغذته به من جديد بأغانيها العذبة وعزفها على « البيانة » ، بل لقد علمته الدروس الأولى فى الغناء ، ودفعته فى الطريق التى يسلكها بعد قليل ، فيعكف على الموسيقا كعكوفه على الكتابة ، ويعيش منها حين يخفق فى العيش من كتاباته ، وبذلك أسدت إليه يداً كبيرة فكسته برداً من وحى وإلهام ، وجعلت له مهنة جديدة تذكره بأيام صباه حين كان يستمع إلى خالته تغنى بأجمل صوت وأعذب نغم .

وكذلك يتوجه الشباب إلى أقدارهم ومصائرهم مدفوعين بأثر جديد أو سيل قوى ، فيغيرون مجرى حياتهم حيناً وفاق العوامل التى تصادفهم ، كما يغير النهر مجراه حين يعرض له عارض أقوى من جريه . ونحن حين نعرض لدقائق هذا العيش لا نحاول أن نذكر التوافه والحكايات ، وإنما نسعى لأن نبين العوامل التى دفعته إلى تكوينه ، والآثار التى خلفتها ظروف الحياة فيه ، لنفهم كيف تكون . فلم نعهد له مدرسة واحدة

يسير فيها من مرحلة إلى مرحلة ، فى أسرة منظمة وعيش مرسوم . وذلك لأنه لم يتح له ذلك ؛ فتنقل فى مدرسة الحياة ، يشرب من الينابيع التى تصفو له وهو أبداً ظامىء . بل كأننا نريد أن نجعل من هذه الظروف ما يذكره الدارسون من أثر الأساتيذ فى نفوس التلاميذ النوابغ . وما أساتيذ هذا الشاب إلا رجال يلقاهم عرضاً فى سبيله فيأخذ منهم ويتأثر بهم ، أو نساء يغذينه بالعاطفة أو بالرأى فيتأثر بذلك ويتكون .

و « مدام ده فواران » حين دفعته إلى هذا المعهد الدينى ، وعلمته أصول الموسيقا ، ردته إلى القسس — وقد كرههم — ليكون شماساً ، ولكنهم سرعان ما ردوا إليها وديعتها . وقد تعلق بالموسيقا الكنسية ، وعرفته إلى موسيقى باريسى بارع هو السيد « لوميتر » كان يغشى بيتها مرة فى الأسبوع ، فاتخذ الشاب مكانه من الفرقة الموسيقية وعزف وغنى خلال عام كامل على أسعد ما تكون الأعوام ، بقرب أم جميلة حبيبة ، وعلى أنغام موسيقا حلوة منعشة ، فاستغل كفاءته وذكاءه ، وارتفع عن مستوى الصناعات اليدوية ، والخدمة فى البيوت ، وأصبح على ثقة تامة بأنه فى مرحلة جديدة تعلو على المراحل التى خاض غمارها فى وحل العذاب والقلق والضنك والحاجة .

وتألف الود بينه وبين « لوميتر » الموسيقى ، وسافرا معاً إلى

مدينة « ليون » ولكنه لم يقر بها ، فعاد إلى « أنسى » إلى مدام « ده فواران » فعرف أنها رحلت إلى باريس ، فرحل فى أثرها ؛ وقد أتيح له من يعينه على ذلك .

وفى الطريق عرف أشياء وأشياء ، حتى إذا بلغ العاصمة الفرنسية ، خاب خياله ، وصدم بقذارة أحيائها وبشاعة مساكنها وقال إنه لقى فيها أكبر حظ من المجاملة ، وأقل قسط من النفع ، فعاد ثانية إلى سويسرة حيث تقطن « ماما » الصديقة الخليلة ، ليعيش معها أمداً . وركب الطريق إليها ، فرأى ما أدهشه من بؤس الفلاح الفرنسى وشكواه من ضرائب فرضت عليه ، وقد كان يضطر إلى اظهاره ليفلت من أيدى الجلادين جباة الضرائب . فعرف أن الفقراء كثيرون مثله ، بسبب العدالة المفقودة ، والنظام الاجتماعى الفاسد ، مما كان له أثر كبير فى نفسه وفى آثاره بعد سنين .

فلما بلغ إلى السيدة أقام عندها سنوات ، كانت حياته خلالها بسيطة ساذجة ولكنها بهيجة ، إذ استسلم خلالها للطبيعة والأحلام ، يقضى أشهراً فى الدار بين الفراش والأقلام . يسعى وراء النباتات فيتفحصها ويعشق النظر إليها كما كان يعشق الفتيات ويجرى وراءهن ، وذلك كله ليملأ فراغ قلبه وعيشه ، كما كان يسعى إلى الموسيقا ويعنى بدراستها ، فكأنه انصرف

إلى أمرين ظنهما متجاورين ، هما الأعشاب على ألوانها وفتنتها والموسيقا على لذتها ونغماتها : ويمتع عينيه ويشنف أذنيه : فى نحو مفيد سيكون له أثره فى مؤلفاته كذلك : لأنه راح يكون نفسه فى انتظام وقد أتيح له القرار خلال سنين .

ولعله كان سعيداً خلال هذه الفترة من الاستجمام النافع ، فقد عكف على الموسيقا ، وظن أنها حرفته وأنه سينصرف إليها كل حياته . ذلك لأنها نقلته من محيط إلى محيط ، فهو يصف حاله الجديدة بقوله : « أجدنى أغوص فجأة فى المجتمع الجميل ، أدخل فيه ، بل تسعى إلى دعوتى أرقى البيوتات ، وفى كل منها كنت ألقى ترحيباً حاراً ، كأننى فى عيد ، وأوانس فى زينة فاخرة ينتظرننى ويستقبلننى فى لهفة ، فلا أرى إلا أشياء جميلة ، ولا أشم إلا الورد والنور ، وزهر البرتقال . ولا أسمع إلا غناء وحديثاً وضحكاً . وثمة تسلية ولهو ، فلا أخرج من هذا المجتمع إلا لألج فى غيره » .

ولكن السيدة التى آوته وحفظته ورعته وأنفقت عليه ، وقعت فى عجز مالى كبير ، لم يعد يحتمل الضيافة التى تقدمها للشاب فقد قضى عدة سنوات فى بيتها يعيش عيشاً جميلا يجب أن ينتهى إلى حد . فعليها أن تهجر البيت أو تعمد إلى عزلة فى الريف ، فاستقر أمرهما على الرحيل بعيداً عن المدينة ليكونا فى

دعة . فوقعا على مكان فى ضيعة « شارميت » على مشارف « شامبيرى » ؛ بين تلين مرتفعين يستيقظان مع الشمس . ويسيران بين المروج ، ويهيمان فى الغابات والربى ، ويرتادان الوديان ، ويجنيان الزهور ، حتى لكأنهما فى جنة الأحلام وفردوس الخيال . فتمكن عشقه للريف وشغف به ، وانصرف إلى المطالعة والقراءة ، فرجع إلى كتب العلوم والفلسفة والمنطق ، وعكف على اللاتينية وقواعدها ، وأحب الكتب التاريخية ، وعشق علم الفلك والنجوم . وهكذا كانت قرية « شارميت » مدرسته وجامعته ، تتلمذ فيها على أصناف العلوم والآداب ، وقرأ فيها مختلف الكتب والمؤلفات . ولكنه لم يحاول الكتابة المتصلة ، وإنما نظم قصائد من الشعر فيها رثاء لنفسه .

وزاد قلق الشاب لحال صديقته « الأم » فقد تضاءل مالها ولذلك فكر فى أن يطالب بثروة أمه ، أو بنصيبه من هذا الميراث فقد بلغ سن الرشد . وقصد إلى جنيف فعلا برفقة أبيه ، وقبض ما يخصه منه ، فسارع إلى شراء بعض الكتب ، وهرع إلى « ماما » ليضع الباقى تحت قدميها . وأنشأ يدرس الطب . لشفاء ما أصابه من أمراض ، وهو لما يعد الخامسة والعشرين من عمره فى ربيع الحياة . فأضاف إلى مصادر القلق والتشرد والتعاسة مصدراً خطراً وهو المرض ، وذلك ليكمل سلسلة العلل التى

تقعده عن البلوغ فى سرعة إلى أوج الشهرة والمجد .

وسافر يستشفى فى فرنسا ، وتعرف فى طريقه إلى « مدام ده لازناج » وهى فاتنة حقاً . فعطفت على مرضه وأصابت منه موضع الود فالعشق فاهيام ، ولكن ذلك لم يدم إذ كان زاد الطريق لجان جاك ، ولا بد له من زاد مماثل أبداً فى حياته ، يتغذى ويتغذى ، ثم يميل وينصرف فى تقلب غريب ونسيان عجيب ، حتى أنه نسى « ماما » فى سرعة مذهلة . فكأن قلبه يستمرئ كل قادم ، ويحب كل وافد ، فيطمس الجديد على القديم ويمحوه . ومرد ذلك فى نظرنا إلى أنه لم يقع على من تفهمه فى عمق ، أو يحترمها من قرارة نفسه . فقد كانت « ماما » نفسها قد نسيته واستبدلت به آخر . فما عاد إليها من رحلة المرض التى كان يستشفى فيها من نوبات الهستريا وعلل أخرى ، حتى رأى بأم عينيه أنها تعيش مع رجل جديد ، وأنها بما قصت عليه من ماضيها وما عرف من حالها أوحت إليه بأن يكون فى أخلاقها يستبدل كما تستبدل ، ولكن البون بعيد بينهما . . .

ولما رأى أن الرجل الجديد قد احتل كل شىء كان له فى البيت ، من حديث وجلسة ونزهة وذكريات غالية وعلاقات طويلة . لم يبق له ازاء ذلك إلا أن يكون غريباً فى غرفة صغيرة ، وأن يبيت حزيناً قلقاً وحده يرى أمه مع الوافد الجديد كما كانت

معه ، فراح يتعزى بالموسيقا ، وأراد أن يعبر عن السلم الموسيقى بالأرقام . وذلك لكى يخترع ، وينال مالاً يكفى به هذه الأم ويردها إليه ، ويدفع عنها كل مغير . فلما أفلح فى اختراعه تحمل إلى باريس ليعرضه على الأكاديمية فيها لعله يحدث انقلاباً هناك .

فباع كتبه ، وحمل مشروعه الجديد ، وغادر « السافوا » وخلف وراءه ذكريات هى كل شبابه ، فقد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، بل ترك قلبه فى « الشاربيت » عند أمه ، لعله يعود إليها يوماً ومعه الكنوز والمال والمجد ، فتفرح به غنياً مشهوراً بعد أن عرفته فقيراً مغموراً ، فيفى بما لها عنده من يد ودين وأثر .

فى باريس

رأينا أن الشاب « جان جاك » ذاق ألوان الحرمان والفاقة والتشرد ، وعرف طبقات الناس المختلفة ، فدخل أجيراً فى صناعات عدة ، وغشى بيوت كثير من الأسر السويسرية والإيطالية والفرنسية ، فعمل خادماً فيها ، وتعرف إلى القسس والأديرة والكنائس ، فتقلب على مهن وحرف ، كان فى كل مرة يظن أنه بالغ منها ما يبلغ غيره . ولكن مصيره لم يتقرر فى واحدة منها ، وزحف إلى التاسعة والعشرين وهو لا يعلم ماذا يكون من أمره فى مستقبل الأيام ، هل يكون فى صناعة الساعات كأبيه ؟ أم يصبح قساً كجده لأمه ، أم يغدو موسيقياً كالذين عرف من الموسيقيين ؟ ، لم يكن يدرى أية طريق يسلك ، فهو خالى الجيب ، فريد فى الحياة ، غريب على الناس . فكان العالم أهله وكانت كل البيوت بيته ، وكانت كل الصناعات والحرف صالحة لو درت عليه الكرامة والإباء إلى الكسب الشريف . فهو على هذا التقلب فى الحياة والمهن لم يهن ولم يذل ، ولم يفقد شخصيته التى يبحث فى تكوينها وحده من غير مرشد أو دليل ، فلا أم ولا أب ولا عم ولا خال ولا كبير الأسرة ، ولا رئيس

الحى . ولا مدرسة ولا أستاذ .

ومن العسير على المرء أن يخوض عباب الحياة من غير مدرب أو معلم . ولكن الحس المرهف والذكاء الدقيق دفعا الصبى والشاب إلى أن يفيد من كل شىء رآه ، ومن كل شخص عرفه ، وأن يجمع هذه المنافع وأن يكون منها ثقافته وشخصيته ومستقبله . فلا شك فى أن أباه أفاده فى قراءة الكتب العميقة ، وفى أن خالته نفعته بموسيقاها وغنائها ، وفى أن البيوت الايطالية علمته اللغة الايطالية ، وفى أن بعض أبناء الأسر علمه اللاتينية وأقرأه آثار الفلسفة والتاريخ . ولا شك فى أن مدام « ده فوارن » كانت لها يد كبيرة فى دفعه إلى الموسيقا ، وفى تعليمه هذه المهنة على يد فنانين عرفتهم ، فقد لبث ثمانى سنوات قريراً فى بيتها — كما رأينا — ينعم بالطبيعة ، وبالقراءة وفى الإلمام بالعلوم الطبيعية والفيزيائية ، والتاريخ والفلسفة والأدب .

كل هذا أفاد منه الشاب قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر ، فتجمعت فى رأسه صور المعرفة والفن والتاريخ والشعر والأدب والموسيقا ، إلى زاد كبير فى فهم المجتمع على اختلاف طبقاته وضروب عيشه ، الفقير منها والغنى ، الصانع والمعلم والقسيس والأمير والفنان ، والقائد ، والسياسى ، واللص والمجرم ، والفلاح والمرأة الداعرة ، والفتاة الشريفة . عاش معهم واختلط بهم ليل

نهارحتى لكأن فيه قطعة من كل بيت سكن فيه ومن كل رجل عاشره ، ومن كل امرأة عرفها . فأتيح له بذلك ما لم يتح لغيره من معرفة وفهم ووقوف على المشاكل والمسائل وألوان العيش ، مما ينفع علماء الاجتماع والأدباء وكتاب العصر ،

فلما توجه إلى باريس سنة ١٧٤١ ، كان فى رأسه مشروع واحد هو اختراعه فى الموسيقا . فلم يكن يعرف أنه يدخل مجتمعاً ثانياً ، وأنه يخوض مرحلة جديدة وعالماً جديداً ، وأنه ينتقل إلى مدرسة كبيرة يتخرج منها بعد قليل ليكون رجلا آخر غير الذى عرفناه ، وأن شبابه وحده كان بمثابة تمرين واضطراب فى صنوف الرزق وأبواب الكسب ، وأنه كان بوابة إلى هذا القصر المنيف والشرف الشامخ والعبقرية المشهورة .

دخل باريس للمرة الثانية ، ليعرض مشروعه ويعود إلى السافوا ، فقد خيبت آماله فى المرة الأولى كمسكن وموطن — كما قلنا — فلما حل فيها انكشف له جانب منها أعجبه ، فقال إنه لامع حقاً . وليس ذاك من قبل المساكن والبيوت فى قذارتها وضعتها ؛ فهى هى ، وقد سكن هو نفسه على مقربة من « السوربون » فى الحى اللاتينى ، فى شارع وضيع ونزل فقير وحجرة مسكينة ، كما ينزل طلاب العلم ورجال الفكر وهم بعد فى سن التكوين ، ليصبحوا كل شىء فى دنياهم المقبلة .

وصل إليها فى الخريف ؛ وكل موارده خمسة عشر جنيهاً فرنسياً ، ومسرحية هزيلة فى جيبه هى « نرسيس » ومشروعه الموسيقى . وكل سلاحه توصيات وخطابات يحملها إلى من فى باريس . فسارع إلى استغلال التوصيات لئلا تتبخر فرنكاته القليلة ، فاستقبل استقبالا حسناً ، وضمن عيشه إلى حين يدرس الموسيقا ويلحن . وكان عليه أن يتعلم أساليب الأكل والتحية والحديث فى هذا العالم المتحذلق ، وفى هذه الحاضرة التى تعنى بالمظاهر والأساليب ، لئلا يكون الريفى المضحك .

ودخل مجمع الفنون الموسيقية ، وعرض مشروعه على الأعلام فأعجب بعضاً وأغضب بعضاً ؛ ولكنه لم يدر عليه المال ، وإنما عرفه إلى رجال مشهورين فى دنيا الفكر والفكن ، وغشى كذلك رجال الأدب لعله يفيد من مسرحيته « نرسيس » أو يفيد من اختراعه الموسيقى . فتعرف إلى « ماريفو » و « مابلى » و « فونتنيل » و « وديدرو » — وكان هذا الأخير مولعاً بالموسيقا كذلك — فاتصلت بينه وبينه روابط الود ، ودام اتصاله به بعد ذلك خمسة عشر عاماً ، فقد كان فى مثل سنه وفى مثل مشروعاته الأدبية .

وطفق « جان جاك » يرود الحدائق الغناء بباريس حاملا « فيرجيل » يردد الشعر ويتغنى بأطايب الأدب فى كل صباح ،

ثم ينقلب إلى المقاهى ليلعب الشطرنج ؛ ويبدد أكثر وقته حتى كادت تنفد نقوده ، فنصحه صديق له هو الأب « كاستيل » Castel بأن يعدل من مشروعه وأن يبدل من أوتاره ، وأن يعوج إلى النساء فهن فى باريس باب الشهرة والرفعة والمجد . ودفعه إلى زيارة سيدة مشهورة أوصاها به هى السيدة « ده بزنفال » Bezenval فخرج من الزيارة منتصراً وكسب تقديرها . وزار بعدها « مدام دوبين Dupin » وهى سيدة على جمال كثير وذكاء بارع ، فحدثها عن مشروعه الموسيقى كما حدث تلك السيدة قبلها ، فاستبقته للغداء عندها كما فعلت تلك قبلها ، وغنت له وعزفت ، فأصبح لا يصدق أين هو من دنياه ، يجالس سيدات الطبقة الراقية ، ويحدثهن ويحدثنه ، ويغنين له ، وهو الذى أفعم ماضيه بالخدمة والمطابخ ، فجن طرباً لحاله الجديدة .

وقد صدق الأب « كاستيل » النصح ، فالنساء كن يقتنصن الرجال العظماء والمفكرين والفنانين ، يزهين بهم كما يزهين بثرائهن وزينتهن ، ويفدن منهم ذكاء ومعرفة ، ويتهن بذلك على أقرانهن ، ويشتهر عنهن هذا الكرم وهذه الضيافة ، كما كان يشتهر عن الملوك فى عصورنا العربية اقتناص الشعراء واستلاب قصائد المديح على ألسنتهم ، فيدور الذكر ، وتعلو

الشهرة . ولذلك كثرت الأبهاء الأدبية « الصالونات » واشتهرت مدام نه كر ، ومدام ده بينه وغيرهما ، فى استجلاب الأدباء والكتاب ، فقد كان لهؤلاء فى القرن الثامن عشر أثر فى المجتمع ومكانة فى الناس ، يتنافس العظماء والملوك والأمراء فى اكرامهم والتباهى فى التعرف إليهم . وقد قال « جان جاك » نفسه : « كان دخول أى بيت من البيوت المرفّهة باباً إلى الثروة » .

وكانت دارة « مدام دوبين » مراد العظماء والأدباء والسفراء والنساء الجميلات ، فعرف فيها « جان جاك » شخصيات كبيرة ، واشتدت الصلة بينه وبين ابن زوجها السيد « ده فرانكوى » ، وكان لامعاً يحب العلم ويعنى بالفكر الراقى ، حتى انتقل فى سكنه إلى جواره . وشغف « جان جاك » بالموسيقا والباليه معاً ، فراح يؤلف مسرحية غنائية فى ثلاثة فصول ، استوحاها من قراءاته القديمة عن آلهة اليونان . وفيما هو كذلك رشحته إحدى السيدات سكرتيراً للسفير الفرنسى فى فينسيا « البندقية » فقبل ، وسافر ، عام ١٧٤٣ ، وقد بلغ إحدى وثلاثين سنة من عمره . وهكذا تبدلت المناصب التى تعرض على الشاب ، وانقلبت حاله إلى وظائف حسنة لا تلم بماضيه ولا تشبه ما كان فيه .

فسافر إلى « طولون » ، وركب البحر إلى « جنوة » حتى وصل إلى البندقية وخاض حالا غمار هذا المنصب الجديد ،

وفيه رسائل من البلاط الملكى أو السفراء الآخرين ؛ فاتصل « جان جاك » بجو جديد لم يكن يعرفه من قبل ؛ فيه عز ؛ وسلطان ؛ ودبلوماسية فرنسية وهو ليس بفرنسى ؛ — لأنه ما يزال على جنسيته السويسرية — واستطاع أن يسبر غور المهنة الجديدة وأن يطلع على فضائح السفراء وما يجنونه من مال ورشوة ؛ حتى حسب أن السفير لا يفوقه فى شىء من المعرفة ؛ فهو الذى يكتب الرسائل ، وهو الذى يجيب على الرسائل الواردة ، وأخلص الخدمة لفرنسا ، ولم يكن مذيناً لها بشىء — كما قال — بل كان أشد إخلاصاً فى ذلك من السفير الفرنسى نفسه ، فاستحق تقدير السفراء وحب الفرنسيين المقيمين فى مدينة البندقية .

وعاش « جان جاك » فى هذه المدينة الفاتنة عاماً كاملا ، يقضى أوقاته فى ساحة « سان مارك » ، وفى النظر إلى الشوارع المائية يجوس خلالها « الغندول » وفى الذهاب إلى المسرح ، وفى زيارة السفارات وتلبية الدعوات والولائم الفاخرة ، وفى سماع الموسيقا الايطالية الفاخرة ، أو الإلمام بالنساء وقد فتنته إحداهن فخصها بخياله وحبه . ولكن هذا لم يدم إذ اصطدم بالسفير ، واضطر إلى مغادرة منصبه والعودة إلى باريس ، فمر فى طريقه بقرية أبيه والتقيا فى حنان وحب ، ثم غادره فى سبيله إلى العاصمة الفرنسية مسرعاً ، ليقدم شكواه ضد السفير ، ولكنه

نسى أنه أجنبي وأن السفير فرنسي ؛ على الرغم من أن الشاب كان يعتقد بأن صلاح السفير للسياسة كان كصلاحه للمحاماة فى صباه .

وخلف هذا فى نفس الشاب شعوراً بسقوط المدنية ونظمها الحمقاء ، وعول على أن يستقل فى أعماله فلا يدخل فى خدمة أحد بعدها أبداً ، وإنما يسعى إلى استغلال مواهبه وقد بدأ يقدر مداها وسعتها بعد أن خبر الناس واتصل بالعظماء والسفراء ، وأقلع عن النظر إلى كفاءته بتواضع وخجل . فطفق يستأنف عمله فى تأليف « الأوبرا » وقد انصرف عنها ، وعاد إلى فندقه القديم بالحى اللاتينى قريباً من « اللوكسمبرغ » وفيما هو يشتغل فى غرفته ، تعرف إلى فتاة تعنى بغسيل الفندق وفدت من « أورلئان » وهى فى الثالثة والعشرين من العمر ، تسمى « تير يز له ڤاسور » Thérèse Levasseur قدمت تجد عملا فى باريس بعد أن ضاقت السبل بأبويها ، وكانت شديدة الخجل . فنمت بينهما صداقة تحولت إلى رابطة قوية ، وانتهت إلى أن سكنا معا . وعاشت سنين من غير أن يعقدا زواجاً بينهما فقد قال منذ البداية « بأننى لن أهجرها ولن أتزوجها مطلقاً » . وقبلت بذلك .

وكانت هذه الفتاة أصغر منه سناً ، ولكنها كانت على غباء

عظيم فى فهم القراء والكتابة ، ومعرفة الشهور والأعوام وعد النقود ، رسمها فيما بعد بما يتفكه به القارئ . وكم حاول أن يثقفها أو يعلمها أمراً ، ولكن عبثاً فعل . ومن العجيب أن حياته انتظمت نوعاً بقربها ، فاستسلم للعمل المجدى . ومردّ ذلك كله إلى عقدة كبيرة هى بعده عن البيت الأبوى فى الصغر ، وحرمانه من الأبوين منذ نعومة أظفاره ، فكلما رأى بيتاً يضمه وسيدة تحويه فرح بملء الفراغ الذى يشعر به ، لذلك لبث مع هذه الفتاة أكثر عمره ، قرابة خمس وعشرين سنة ، تنجب الأطفال ، ويلقى بهم واحداً بعد واحد إلى ملجأ اللقطاء ، حتى بلغوا خمسة فيما يقول . وقد كان يفعل ذلك خوفاً من أن يعيشوا معه فقراء مشردين ، ولذلك حرم تربية الأبناء كما حرم تربية أبيه له ، فلم يذق طعم الأسرة والقرار والأبوة والنعيم طوال حياته .

طريق الشهرة

غادر « جان جاك » جنيف سنة ١٧٢٨ ، وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً . وكل زاده روايات وقصص قرأها . وقدم باريس سنة ١٧٤٢ ، وقد بلغ الثلاثين من عمره ، فإذا به مثقف يجيب ويسأل ويناقش ، ويتحدث فى موضوعات عميقة . فكان ذلك مدهشاً حقاً . إذ استطاع خلال أربع عشرة سنة أن يقطع شوطاً بعيداً فى الفهم والتعلم والإدراك ، على طريق معرجة صعبة ، كما رسمنا ، فكان شجاعاً فى السير قدماً من غير أن يتوقف دماغه عن الاستيعاب ، وصدره عن الحفظ . فلقد رأينا أنه تعلم اللاتينية والإيطالية ، وحذق الموسيقا فحرر فيها فيما بعد مقالات جمعت فقال عنها المختصون بأنها غنية ، وتعلم الكيمياء فشهدت مؤلفاته عن فهمه فيها ، وحاول أن يكتب تاريخ العالم .

تتلمذ على « ليبنتز ومالبرانش » وقرأ « باوتارك وشيشرون وبوب وونتنى ولوك ، ولابروبير ، والأب بريفو » ، فاستطاع أن يكون ماكان . وأن يؤلف أوبرا إثر رجوعه من البندقية ، ونظم شعراً نشر منه اثنتى عشرة أغنية ، وبدأ يعمل للانسكلوبيديا

وذلك على فقر الوسائل التى يملك والوسائط التى تعين ، ففتش أبداً على من يحميه ويصادقه — كما قال من قبل — ووجد فى طريقه كثيراً ؛ ولكنه رأى فى باريس ضالته فقد اتصل بقسم كبير من الأدباء لعصره ، وتعرف إلى كثير من الأرستقراطيين الذين يدعون معرفة الأدب ونصرته ؛ ورغم أنه كان حيياً خجولا يحس بنقص فى اللباقة والكياسة لدخول مجتمعات باريس وإنما انتصر بفضل عبقريته التى كانت تنجده دائماً .

ولكن النصر الذى واتاه والشهرة التى أقبلت إليه ، كان وليد حادث عجيب وقع له ليرفعه إلى حيث الكتاب والشعراء والفلاسفة . فقد ذكر أنه اتصل بـ « ديدرو » وربطت بينهما المودة . فلما سجن هذا الصديق فى « فانسين » إثر كتابه « فى الآثار الفلسفية » ذهب فى يوم من أيام صيف ١٧٤٩ ، فى طريقه إليه ، ضارباً على رجليه ، والعرق يتصبب منه ، لجأ إلى شجرة ، وفتح جريدة « مركورده فرانس » بين يديه يقرأ ليستريح من وعثاء الطريق ؛ ويستأنف السير بعدها ، فإذا به يقع على السؤال التالى فى الجريدة ، طرحه مجمع ديجون : « هل ساعدت العلوم والفنون على تطهير العادات وتصفيتها » وحركه السؤال ، وغمره بشعور عميق فكأنه غدا إنساناً آخر ، وانفعل بالموضوع أشد الانفعال . فلما بلغ إلى « ديدرو » كان ثائراً مهتاجاً ،

فلاحظ صديقه ذلك وسأله ، فأفضى إليه بالسبب ؛ فشجعه على نشر آرائه ، ودفعه إلى أن يشترك فى هذه المباراة ؛ ويقول : « جان جاك » بعد ذلك فى اعترافاته : « ولكن ذلك كان سبب ضياعى طوال حياتى ، وكان سبب تعاستى » وذلك لأنه ظل كل ما بقى من أيامه يفتش عن الفضيلة والحرية والحقيقة .

بلغ الرجل آنذاك الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد نضج فكره واختمرت آراؤه ، واستوت معلوماته ، وكان لا بد من أن يسكب على الورق نتيجة آرائه وخلاصة خبرته وتجاربه المريرة ، فقد باكره الألم ، وألمت به التعاسة والحاجة فى سن قلما زارتا فيه مفكراً أو كاتباً مثله . فطفق يفكر فى الموضوع ، وهو يقع منه فى الصميم ، وأقبل على العمل لإعداده اقبالا عجيباً ، فانصرف إليه ليل نهار ، واستغرق فى التفكير فيه ، وتقليب عباراته فى رأسه حتى إذا انتهى من ذلك أودعها فى الأوراق . وقد كان خلال تفكيره جياش العاطفة ثائر الفكر ، يخاف أن ينسى رأياً طرق ، أو عبارة عرضت فسجل كل ما دار فى رأسه .

ولما انتهى من مقاله عرضه على صديقه « ديدرو » فأشار عليه بتعديلات فى مواضع منه ، وأرسله إلى مجمع ديجون ، من غير أن يتحدث عنه إلى أحد . وقد قال فى مقاله هذا إن

العلوم والفنون تقتل فراغ الرجال ، وتعودهم البطالة. وإنها مسئولة وحدها عن الانحطاط والفساد . وعرض لمصر وبزنطية والفرس والصين فبرهن على أن توغل الانحطاط فيها مواز لتقدم الحضارة ، وأن الترف طمس على فضائل البطولة الحربية ، وأن المجامع العلمية وحدها تسهر على الأدباء وتحمى الآثار والمؤلفات .

وما أهل عام ١٧٥٠ حتى أعلن مجمع ديجون بأن المقال الفائز بالجائزة هو مقال « جان جاك روسو » . فقد تأثر المجمع بحجج الرجل وبلاغته ، فتوج الخطاب وأعلنه ، واشتهر به صاحبه ، وهو أول فوز كسبه « جان جاك » فى حياته ، فكتب فى اعترافاته يصف هذا الفوز : « فأيقظ هذا النبأ من جديد كل الأفكار التى أملته ، وأثارها بقوة جديدة ، وحرك فى قلبى خميرة البطولة والفضيلة التى وضعها فىّ أبى ووطنى وبلوتارك منذ طفولتى ، وهكذا رد فضل فوزه إلى أبيه قبل كل شىء ، وإلى وطنه الشريف وإلى بلوتارك فى كتابه سير العظماء ، فدلنا على موارده الأصيلة التى أشرنا إليها فى تفصيل لنبلغ إليه هنا وندل على أثرها فى شهرته ومجده .

وما كان هذا الحدث بالقليل ولا بالهين لذلك الزمان ، وما كان من اليسير أن يسكت عنه العلماء ، فجاءته ردود أجاب

عليها ، ومنها رد ملك بولونيا ، وغيره من المفكرين . وقد نقده سنة ١٧٥١ « فولتير » فأجابه على رده ونقضه ، واستوى معه فى صعيد واحد . بعد أن كان يقرأ عليه ويتخذه عنواناً للشهرة . وعرف الناس باسم « روسو » وتحدثت عنه المجتمعات ، وتلقفته الصحف والمجلات فقد كان أول صوت واضح لهذا السويسرى فى سماء باريس وفرنسة والعالم الأوربى ، فحقق الطفل الشريد والشاب المضطرب المريض أول خطوة نحو المجد ، ومكن لأقدامه فى تلك الأرض ، وعرف أنه كاتب وفيلسوف وأديب .

وراح بعد ذلك يستعد لرسم فلسفة الإنسان ومصير البشرية ، ولكن مقامه فى دار « مدام دوبين » وعمله لخزانتها ، واسرافه فى إرهاق نفسه فى سبيلها رد إليه مرضه القديم فى المثانة [١] وجعله يفكر فى حرية نفسه وجسمه وانعتاقه من خدمة الأغنياء . ونبذ كل تفكير فى الإثراء ، معتزماً أن يعيش فى فقر مع الاستقلال البقية الباقية من حياته . وتغيرت شخصيته وآراؤه بعد أن لمعت شهرته فى الكتابة . وقر قراره على العيش من نسخ الموسيقا . وتكفل « ديدرو » بطبع مقاله الفائز ، فقد قال : « إنه حظى بكل إطراء » .

ونفذ عزمه فأنبأ السيدة بانقطاعه عن خدمتها ، وباع

---

(١) ولد روسو سقيما وأصابه مرض بإيطاليا خبيث .

ما عنده من حاجات زائدة ؛ وانصرف إلى التقشف ، وعكف على وضع « أوبرا » على نسق الموسيقا الايطالية . فلما تمت مثلت سنة ١٧٥٢ أمام الملك وحاشيته فى فونتنبلو وكان « روسو » هناك ، فسمع همس الإعجاب حوله من كل جانب ، وبلغ إلى مسامعه أن الملك راض عن أثره وأنه يطلب مقابلته ، ولكنه أبى سعياً وراء حريته ومبادئه . ثم مثلت روايته « نرسيس » فى المسرح الفرنسى ، ففشلت كل الفشل .

وبينما كان يتجرع كئوس النصر ممزوجة بكئوس الفشل أعلن مجمع « ديجون » سؤالا لمسابقة جديدة موضوعها : « ما هى أسباب عدم المساواة بين الناس ، وهل يقره القانون الطبيعى » . فتلفّت روسو إلى الإجابة مرة ثانية ، وعرض نفسه وقلمه للمباراة ، فهو يحس بأنه قطعة منه ، وأنه عاش فى أفكاره كثيراً ؛ فتحركت ثورته ، وجاش فكره ، وأخلد إلى خارج باريس « سان جرمين » ليخاو إلى نفسه فيكتب ويكتب ، ويصيح بالبشر : « أيها الحمقى ، إنكم لا تكفون عن الشكوى من الطبيعة ، وكل مساوئكم إنما تنفجر من نفوسكم » .

وكان مقاله عملا أدبياً رائعاً أعجب « ديدرو » كل الإعجاب وأثار ضجة كبيرة ، وعاصفة عظيمة فى المجتمع .

فقد جعل عنوانه « حديث فى عدم المساواة[١] » . نادى روسو فيه بالمساواة فقال : « الأصل الأول للشر هو عدم المساواة بين الناس . وعن عدم المساواة تنشأ الثروة . والثروة تولد الترف والفراغ . والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أساس وجود العلوم » . وتطلع روسو إلى المدنية ومصائبها ، فظهر له أن أساس المدنية هى فكرة الملكية فقال : « وأول من فكر حين أحاط قطعة أرض بسياج فى أن يقول هذه لى ، ووجد قوماً بلغت بهم السذاجة أن يصدقوه هو الواضع الحقيقى للمجتمع المدنى » .

« وكم من الجرائم والحروب والقتلى ، وكم من البؤس والتعاسة كان يستطيع أن يوفره على الإنسانية ذلك الذى يتقدم حينذاك فيقتلع الأعلام ، أو يردم الخندق المحيط بالأرض ، ويصيح فى قومه إياكم والاستماع إلى هذا الكذاب ، إن ثمار الأرض لكم جميعاً ، وليست الأرض لأحد ، فإذا نسيتم هذا فأنتم هالكون » .

وهذه صيحة مدوية فى وجه الملكية الفردية تقدمت الآراء الاشتراكية فى فرنسة لعصره ، وجرأة نادرة فى ذلك المجتمع الفاسد الملكى . لقد نادى الكتاب والمفكرون قبله منذ القديم بالمساواة وقرروا أو كادوا مبدأ « الكومنيزم » ولكنه كان فى حرارته

---

(١) ترجمة المرحوم عادل زعيتر بعنوان : « أصل التفاوت » .

أشد توقداً واندفاعاً ، فحمل اللواء وسار فى الطليعة لنشر العدالة الاجتماعية وتوطيدها وكان الناس يشعرون بفساد الملكية ، وينظرون إلى هذه القلة التى تملك الأراضى الشاسعة وتنفق عن سخاء وسعة لإرضاء شهواتها ولذائذها على حساب طبقة فقيرة كادحة محروقة من كل ملك فى الحياة ، ومسوقة إلى العمل الدائم فى ذل وحرمان وعذاب . فلما صاح روسو صيحته تلفتت إليه الأرواح المعذبة والقلوب المظلومة . وهتفت له حين سمعته يقول : إن الزراعة والصناعة المعدنية كانتا سبباً فى خلق التفاوت بين الناس ، وهذا التفاوت خلق أشخاصاً مختلفين فى الرزق والعيش والحقوق ، فسلب القوى أخاه الضعيف ، واستعلى عليه . واختلاف الناس جر إلى خلق قضاة ومحاكم ، وشغلت البشرية بسلب الحقوق والسعى إلى ردها ، فضاعت حقوق وأوقات وأموال فى هذا العبث الشرير الذى لم يكن له أن يوجد لولا الملكية الفردية .

وكان روسو يدعو الفقراء إلى الثورة على ظلم الإقطاع . ويعود بأسباب تعاستهم إلى المدنية المترفة ، ويقول إن الحرية لا تكون مع عدم المساواة ، وإذا كان التخلف الحضارى يمنع هذا الظلم فلنعد إليه راضين . إن الإنسان يرضى بتعسف من هم أرقى منه درجة لكى يكسب عيشه ويعمل إلى جانبهم ، يحثه

الأمل إلى مستقبل باسم ، فينزل فى سبيل ذلك عن كثير من إبائه وأنفته ، فيغدو فى هم قاتل وتى داخله انهم فقد السعادة والهناءة . والاستبداد سيف مصلت على الشعب والقوانين .

ويقول روسو : إن الرجل فى حياته الابتدائية لا يكون خيراً ولا شريراً ، ولا يملك نقيصة ولا فضيلة ، إنه يولد طيباً ولكن المجتمع هو الذى يفسده . وليست الحضارة فى أن نؤمن بحق الأقوى ، ولا فى حق السيطرة ولا فى قبول الظلم .

وهذا المقال يختلف عن مقاله الأول فى أثر العلوم والفنون فذاك يعتمد على الأخلاق والعادات ، وهنا يعالج مشكلة اجتماعية وسياسية معاً ، هى مشكلة الإنسان فى السعادة والشقاء ، طرقها روسو بأسلوب مفكر متأمل فى اختلاف الطبقات . وقد خرج على لسان متألم خبر الأرض والناس وذاق ما ذاق من ذلك كل عمره إلى أن قضى غريباً فقيراً ولذلك أصبح يدعى فيلسوفاً وكاتباً . فأحله مكانة رفيعة فى العالم ، وقدسته الثورة بعد ذلك حين رجعت إلى كتاباته وآرائه . ولكن هذا المقال على حرارته وصدقه وثورته لم ينل جائزة المجتمع فى ديجون ، لأن كاتبه بدل العنوان واختار جوابه بعيداً عن صميم السؤال . ولكنه لم يبال بذلك فقد أهداه إلى أهل « جنيف » حيث وقع منهم الوفاء لبنوته وحبه .

وقد هزت كتاباته أفكار القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر هزات لم يطمع فى مثلها « فولتير » أو « مونتسكيو » فخلف أثراً عميقاً وشهرة هائلة .

وعزم بعد هذا المقال أن يزور مسقط رأسه « جنيف » وقد غدا على كل لسان وفى كل صحيفة ، فاستصحب « تيريز » ومر فى طريقه «بمدام ده فواران» ماما الحبيبة القديمة ، فرآها على أسوأ حال ، تتعلق برزقها من غير عاطفة ، وتتألم لحالها ، فكان عليه أن يقاسمها حظها[1] ، وأن يرد إليها يدها ، ففى بيتها قرأ ، وعلى رزقها عاش ، سنوات ، ولكنه غدا يهتم بما هو أكبر من ذلك ، وراح يفكر بمستقبله القريب ورسالته المرصودة على أنه « رسول الاشتراكية » ونصير العدالة الاجتماعية ، وإنجيل الثورة الفرنسية .

فترك لها ما كان فى جيبه وقدم إلى «جنيف» فاستقبله أهلها أجمل استقبال ، واحتفوا به أحسن احتفاء ، وفتحوا أمامه الأبواب فنظر إلى الأسوار التى شردته وردته ، وسرح خياله فى مدارج صباه ، وأراد أن تراه العيون التى استقبلته ، والنفوس التى انصرفت عنه ، لتعرف كيف يصنع الإنسان نفسه على الرغم من الفقر ، واليتم ، والتشرد ، والمرض ، بل ليشهد الجيل بأن العلم يرفع ،

(١) كتب فى اعترافاته يقول إنه عرض عليها أن تأتى وتعيش معه ولكنها أبت

والفكر يسمو بصاحبه ، والأدب يكسب الشهرة ، والخلود للفكر لا للمال ، وأن المجد يتطلب الصبر والمثابرة ، فإذا أخفق العبقرى فى قطر نجح فى آخر ، وليس الذنب ذنبه وإنما ذنب الذين لا يفهمونه ، فيتهمونه بالغباء وهم أبعد ما يكونون عن الفهم والذكاء .

كذلك عاش روسو على جنبات البحيرة مسحوراً بالماء والخضرة والجمال والهدوء ، فابث أربعة أشهر عاد بعدها فى خريف ١٧٥٤ إلى باريس ، وهو فى الثانية والأربعين مشيّعاً بالحب والإكبار . على غير ما غادرها أول مرة .

الحلم الجميل

« يجب أن نقرأ هيلويز الجديدة حين
نصبح أزواجاً »

« مدام ده ستال »

أثارت جنيف فى نفس الشاعر المفكر هوى الريف من جديد ، وعاد إلى أحلام صباه فى السكنى بعيداً عن الناس ، فى عزلة جميلة ، بحضن الطبيعة الحلوة ، يستسلم لأوراقه وذكرياته ، ويعيش مع قلبه وهواه ، فقد تقلب فى الجمال على ألوانه من شجر وماء وزهر وسماء ، وحسان وموسيقا . وله أن يلم من هذا كله صوراً يبعثها على الورق ، ويسيرّها فى الناس ، فهو لهذا خلق ، وبهذا ينتصر . وفكر فى أن يعود إليها ، ولكن وجود « فولتير » على مقربة منها بعث فى نفسه الريب والظنون على ما كان بينهما من ودّ ظاهر رسمى ورسائل متبادلة ، فآثر أن يبقى فى فرنسة بعد ذلك .

فلما عرضت عليه السيدة « ده بيني » أن يسكن الأرميتاج » على مقربة من قصرها بجوار غابة « مونمورنسى » سارع فى القبول وانتقل إليه فى ٩ أبريل ١٧٥٦ ، وقد ملّ

سكنى باريس ، وسئم عيش التحذلق والحضارة المزيفة ، والمراسم فى الصالونات مع اعترافه بما أكسبته باريس من مجد وشهرة . فقد عرف أنه خلق للكتابة بعد هذا الفوز ، وعرف أن الناس ظامئون إلى من يكتب فى صراحة وحرارة ، فيصوّر آمالهم وأحلامهم وآلامهم وتعاستهم . وأدرك أنه فتح باب الشهرة ، وتسلق طريق التأليف ، فعليه أن يتم مشاريعه الكثيرة فى الكتابة والتحبير . ولم يتلفت إلى همس الباريسيين حوله من حاسديه بأنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، وأنه لا بد أن يحيا عالة على غيره . ولكنه رأى أن الأمور بخواتيمها ، وأنه يستعيد فى « الأرميتاج » بهذه الصومعة الحلوة النائية ما كان له من أحلام فى « الشارميت » صومعة ماما الحبيبة ، وأن أحلام الماضى تراق فى حاضره وتنسكب فى نفسه ، فتحقق أمانيه . وإذا كانت السنين التى أنفقها فى « الشارميت » للاختزان والدراسة ، فإن السنين فى « مونمرنسى » ستكون للإنتاج والتعبير . وأن عشرين سنة كونت فى رأسه مخزناً للأفكار قد امتلأ ويجب أن يفرغه اليوم على الورق .

ولهذا صحب معه إلى الصومعة « تريز » وأمها ، ليعيش جميعهم على هناءة واكتفاء . وراح يتنقل فى دروب الغابة وحدائقها ، يصافح الزهر والنور والظلال وينتعش بالعطر

والموسيقا الإلهية ، بعيداً عن الضجيج واللغط ، مؤمناً بأن الحياة الرفيعة هى فى قلب الغابة المتوحشة ، وأن الحياة الاجتماعية يغمرها الفساد والبؤس . وأن الكتاب يعادون كل مفكر ناجح ، بل إنهم يكرهون من يسمو فى تآليفه عليهم ، ويريدون به الأذى ، غيرةً وحسداً . وكذلك حسب أن أعداءه كثّروا ، وأن الشهرة ستجلب عليه الغيظ والحقد ، وأنه بلغ الرابعة والأربعين من عمره ، وهو يقترب من نهاية أيامه ، ومع ذلك فلم يتذوّق ملذاته كاملة كما تمناها قلبه .

وساقته العزلة إلى التفكير بأيامه الأولى والشباب ، فعاد إلى قلبه يسائله عن آلامه وأحلامه ، فكم تجرع من حب عابر ، ولذاذات سائرة ، ولكنه لما يتبادل نجواه مع قلب شقيق ، على رسائل وأجوبة فيها حبّ كثير وشوق عظيم وهوى دافق ، وأن عيشه مع « تريز » كزوجة لا يستطيع أن يملأ فراغ نفسه لأنها خلقت لغيره ، وساقها القدر إليه ، لا ينفكّ عنها ولا يرتبط بها ، وإنما يتجاوران فى كل شىء إلا بالروح والقلب ، فلن يحدّثها فى الأدب والفكر ولن تفهم عنه هواه .

وأضحى وحده يحدّث نفسه ، ويتخيل ، ويفكر ، فالإنسان لكى يصبح سعيداً يجب أن لا يهتم بالثروة والطموح ولا بالحضارة ، وليس له أن يرفض الحب ، ولا يمكن للإنسان

أن يعيش كالوحوش المنفردة بل عليه أن يعيش مع وحش آخر يتآلفان فى هوى فيقول : « فإذا خلت الحياة من كل شيء فيجب أن تمتلئ بالعاطفة وليس من السعادة فى شيء أن يعيش الإنسان فى عزلة مستوحشاً ، ولكن السعادة أن يعيش كائنان على حب يظهرانه ويقولانه » .

وأنّى لروسو تحقيق هذه الأمانى ، فقد فاز بنساء كثيرات ، ولكنه لم يفز بالحب ، و « مدام ده فوارن » أعطته ما تملك ، و « تريز » خادمة تعيش معه فلا تثير إلا روايات المطبخ فى نفسه . لذلك ساق قلبه إلى الخيال . ودبر حلماً جميلا رائعاً ، عاش فيه ، فتصوّر نفسه شاباً كريماً ، سماه « سان برو » ومعلماً لطالبتين فى المدرسة ، جميلتين ذكيتين ، فأحبّ إحداهما ، وسماها « جوليا » وهى شقراء حالمة ، وأصبح صديقاً للثانية وهى سمراء ضاحكة وسماها « كلير » . فكان يتخيل فى هذا الحلم أنه ابتعد عنهما فراح يكتب إليهما . وتحول الحلم فى رأسه إلى حقيقة ، فصدّق ما اخترع ، وأمسك باليراع وجلس للكتابة ، وأخذ بورق جميل مصقول ومداد ظاهر خلاب ، وأنشأ يسطر للحبيبة كلما عنّ له . ويبكى ويقبل بدموع حارة ما كان يكتب . وتخيل أن « جوليا » تعبده ، وأنه ثمل بهذا الحب ، فعاش روايته التى سماها

فيما بعد « هيلويز الجديدة » .

وكان « روسو » قد قرأ كثيراً من الروايات التى ألفت قبل ذلك . وفى هذه الروايات تبدو مسالك الحب وعواطف القلب ، والميل إلى الطبيعة ، وتحبيب الفضيلة ، فيها قوة الذكاء ونصرة الأخلاق ، وتعابير الهوى ، وفيما هو يتأثر بهذه الروايات التى قرأها ، ويستمدّ منها مادة خياله وسطور رسائله وقع ما لم يكن فى حسبانه . فقد قدمت « مدام ده دوتو » لزيارة السيدة « ده بينى » وهى زوجة أخيها ، وحاولت الرجوع إلى باريس ، ولكن عربتها غاصت فى الطين ، فسكنت فى « الأرميتاج » فملأت فراغه ، وكانت فى الثلاثين من عمرها مرحة خفيفة ، ذكية جذّابة ، ولم تكن جميلة وإنما كانت حلوة القوم ساحرة الابتسامة ، على ذوق كبير وفهم واسع ، تحب المركيز « سان لامبير » وهو صديق روسو الحميم[1] .

وكأنّ قدومها هبط على روسو من السماء ، وأثار قلبه إلى حنين جديد وشوق كبير ، فأخذ بها وأولع بها حباً ، فرأى فيها حلم حبه ، واعترف أنه وجد فيها شبهاً « لجوليا » التى تخيلها فى رسائله فارتمى عليها كما يرتمى المسافر على ينبوع فى الصحراء .

---

(١) كان زوجها فى الجيش ولكنه لا يحبها فأحبت سان لامبير وهو فى الجيش كذلك ، وتقاليد العصر تبيح سراية هذا المرض .

وفرحت الكونتيس بأن تكون حبيبة لرجل شهير كروسو . وكانت زيارات ونزهات . شغلت قلبه . وتحولت روايته الخيالية إلى رواية واقعية . ووقع الحبّ والغرام ، فأصبحت وحيه فى رسائل الرواية التى يخترعها ، وكان روسو فى الخامسة والأربعين من سنيه .

ولكنها صاحت به مع الدموع : إنّ صديقك « سان لامبير » هو الذى أحببتُ . وما لقلبى أن يحبّ مرتين ، وليس لنا إلاّ الصداقة . فعاشا فى حبّ برىء دام ثلاثة أشهر . واصطدم الهوى بالفضيلة والإخلاص ، فانتصرت الفضيلة فى قلب « جان جاك » واضطرم الغرام فسال فى الرواية .

والرواية فى صدرها الأول أغنية للحب الشريف ، وهى فى نصفها الثانى أناشيد السعادة والفضيلة ، تبين عن زواج بغير حب . وهى فى جملتها صورة لحياة روسو ، أدارها على « جوليا » ابنة البارون الوحيدة ، استدعت أمّها معلماً لها يلقنها العلوم والآداب ، فاشتركت مع ابنة عمها « كلير » فى الاستماع إلى هذه الدروس النافعة . فإذا انقضى زمن قصير وقع المعلم فى هوى « جوليا » وصارحها بما أحسّ وكتب إليها رسائل طويلة أجابت عليها ، والأم تجهل كلّ شىء ، والفتاة تعلم أن لاسبيل إلى الزواج ، لأن أباها على أرستقراطية تمنع

مثله من الرضا . فلما علم أبوها بما كان هدّد ابنته وأبعد المدرس .

فهجر المدرس إلى باريس لعله يسلو أو ينسى ؛ فإذا به يثور لحياة الفرنسيين وخلاعتهم وسطحية عيشهم ؛ ويرسل نفسه فى رسائل إلى جوليا ؛ ويتلقى عنها رسائلها حتى أحس الأب فداواها بالزواج ؛ وحسب أن كلّ شىء انتهى فقطعت عنه رسائلها ورجته أن يقطع عنها . ففكر فى الانتحار ثم صُرف عنه . وعاشت سعيدة بطفليها ، ومعلمها يطوف العالم فإذا عاد وعلم الزوج بما كان بين « المعلم » وبين زوجته دعاه إلى بيته ووثق من خلقه ، بل كلفه أن يكون مدرساً لطفليه ؛ فرضى أن يكون لهما صديقاً وفياً كما كان بالآنستين من قبل صديقاً حفياً .

وسافر المعلم إلى « رومة » فى رحلة قصيرة ، فأتاه أن جوليا خرجت فى نزهة على البحيرة ، فسقط أحد طفليها فى الماء وانطلقت وراءه لإنقاذه فإذا هى غريقة فى آخر رمق ؛ ترجو أن يبلغ معلمها « سان برو » التماسها الأخير فى أن يكون للطفلين كما كان لأمهما من قبل ، وأسلمت بعدها الروح ، فماتت « هلويز » وهى على أشدّ ما تكون طهراً .

وقد اهتزّ المعاصرون لهذه الرسائل وهذه الوقائع ، فحسبوا أنها حقيقية نشرها روسو على شكل رواية . وما روسو عنها

ببعيد فهو قائم فى كل سطر من سطورها ، وحياة أحبته فى كل صفحة منها . فجوليا هى صورة لمدام «ده دوتو» والجو صورة لبحيرة جنيف لأنها أجمل بحيرة فى العالم فى نظره قد كان يحلم أن يعيش فى ركن قريب منها ، ببيت صغير وقارب جميل ، وامرأة يحب وصديق وفىّ ، فجعل ذلك كله فى « هلويز » كأغنية جميلة تصوّر بلاد السافوا والشواطئ التى عاش بقربها صغيراً ، وعاش معها بخياله كبيراً .

والأسماء فيها كانت قريبة من الأسماء التى عرفها روسو ، والذكريات التى عاشت معه كانت منابع الكتاب ، فهى اعتراف وحلم ، وتعبير عن حياته الداخلية ، ورسم لإحساسه ومشاعره . والفلسفة فيها حبّ لله واعتقاد به على طريقة روسو . والانتحار فيها زىّ ساد العصر . أما الأفكار فى كره الدنيا وخداعها ، والانصراف عن الترف إلى الريف ، والهرب من القصور إلى الطبيعة فهى أفكار الطبقة المختارة التى بدأت منذ سنة ١٧٥٠ ، تكره باريس ومجتمعاتها ، وتود الرحيل عنها إلى جوّ سحرىّ شاعر ، فعرفهم روسو إلى سويسرا وطبيعتها ، وحببهم بالطريق المعرجّ ، والزهر المتفتح ، والربيع المقبل ، ومنظر المساء والأصيل والشروق . فغدا الناس يهبون إلى الجبال ، وينصرفون إلى الحدائق والرياض .

ألف روسو هذه الرواية فى سرعة مدهشة ، منذ يونيو

١٧٥٦ — ١٧٥٨ ؛ وطبعت ختام سنة ١٧٦٠ ؛ فى هولندة ، على ألف صفحة ، فأثارت فى الأدب ريح « الرومانتيكية » وتحكمت بأدب القرن التاسع عشر ، فأصبحت زاد أمة بأسرها ، وراجت رواجاً عظيماً منذ ظهرت على الناس بعنوان : « خطابات عاشقين يقطنان مدينة فى سفح الألب ، نشرها جان جاك روسو » وما عرفت باسم « هلويز أو جوليا » إلا بعد أن راجت ونالت الإعجاب فغدت كل امرأة تنظر إليها كأنها أغنية قلبها ونشيد حبها . بل إنها خلفت فى الأدب رواية « هلويز » « لابيلار » وقد صدرت بباريس قديماً وكانت علم الغرام فى فرنسة ولكنها كانت ثمرة لغرام غير مشروع ، بين قسّ معلم ، وفتاة تعلمت عليه الفلسفة ، وحملت منه ورفضت أن تتزوج خوفاً على مجد القسّ ، ولجأت إلى دير ولجأ إلى دير وظلاّ على عهدهما حتى مات القس ، وعاشت بعده عشرين عاماً أو تزيد فى طهارة كطهارة القديسين ، ثم ماتت . فخلدت الروايةُ قبريهما بباريس ، وسارت رسائلهما باللاتينية ثم بالفرنسية ، وحُفظت فى كل بيت .

ولكن رواية روسو حين اتخذت هذا الاسم الذائع للهوى ، سمت على أختها ، وسارت فى الناس ، فقضى القراء ليالى بيضاء حتى الصباح فى قراءتها . ومن لم يحظ بشرائها

استأجرها ، فدرّت ذهباً على المكتبات . وطبعت ستين مرة خلال أربعين سنة . وهذا أكبر نصر فى بيع الكتب ورواجها .

ولقى روسو فى سبيلها مجداً وعنتاً ، فاختصم مع فولتير ، وديدرو ، وغريم بسببها ، فأنكروا تبويبها ، ولكنهم لم ينكروا عبقرية كاتبها . وتلقى المؤلف مئات الرسائل ، واعترف له القراء بأنهم أقفلوا على أنفسهم الباب خلال ثمانية أيام ، وقال بعضهم إنه لم يجرؤ أن يقرأ موت جوليا ، وسكر بعضهم بالغرام واللذائذ العلوية . و رأى آخرون أنها أنعشت فيهم الحب والهوى والبطولة وحب الواجب . وشهد بعض النساء أنه كتاب المرأة المتزوجة التى تحبّ أن تعيش بحب الفضيلة .

وكثير من الروائيين اقتفوا خطواته فيها ، فكانوا طلابه ، ورسل ثقافته وأدبه ، بل قلدوه فى عباراته وعناوينه . وأصبح الناس يتذوقون نعيم « الجبل » ويرغبون فى زيارة سويسرة وغدا الأزواج يرحلون إليها ويتخذون منها وحى سعادتهم ، وتغنى الشعراء بعده بتعابير الجبل وعظمة البحيرة .

وانتصرت الرومانتيكية وأصبح الكتاب يردّدون : « ينخرط الإنسان بالدمع باكياً من غير أن يدرى لماذا ، ويسبح فى الأحلام فلايستطيع أن يعبر عما هو فيه » . فكان روسو معلم جيل ، وأستاذ أدب ، وكاتب القرن ، وروائى العصر ،

ارتفع إلى أوج الشهرة ؛ وخدم موضنه وردّ إليه يده ؛ فكان أوفى الأبناء وأعذب الكتاب : وأوسعهم خيالا ؛ وأجملهم نصيحة في الحبّ العذرى البرىء، وقد عاش حياته على ظمأ إلى الحب العذرى البرىء .

رسالة عن المسرح

كان « روسو » يحلم دائماً أن يعيش فى الطبيعة ، وأن يقيم عزلة جميلة ، ينفرد بها ، فيتخيل ويحلم ، ويكتب ، كما كان يفعل فى « الشارميت » بقرب « ماما » العزيزة . وكان حلمه أن تكون « الأرميتاج » عزلة كذلك لقلبه ونفسه ، لا يصغى إلا لصدى النسيم الحلو ، والهمس اللطيف ، ولا تقع عينه إلا على مناظر بهيجة ؛ لذلك انصرف إلى التأليف ، وظن أنه سيكون فى بيته . فراح يقلب مشروعاته فى كتاب عن « المذاهب السياسية » ظل يفكر فيه خلال ثلاث عشرة سنة ، ويكتب فيه منذ خمس سنوات ، وفى كتاب عن الأخلاق والمادة ، وثالث عن التربية ورابع عن الله والخير والشر ؛ أرسله إلى فولتير فى ١٨ أغسطس ١٧٥٦ . وخامس عن « العقد الاجتماعى » ولكنه آثر على هذه الكتب جميعاً رواية خيالية رسم فيها هوى قلبه الظامئ ، ونفسه العطشى ، وشعوره المكبوت ، وحبه الدفين ، فقد قطع شوطاً من الحياة إن لم يحلم فيه ، فلن تكون بعده رجعة إلى القلب والخيال .

وكان الحلم الجميل حين أقبلت « مدام ده دوتو » ، فوافق

خياله ما كان من حقيقة ، وانصرف إلى الرواية الجميلة بين الواقع والخيال ، « هلويز » وظل يكتب كأن القدر يملى عليه رسائلها أو كأن السعادة ساقت إليه الأفكار والأخيلة فليس له إلا أن يخطها على الورق .

وفيما كان يسبح فى هذا الحلم البعيد ، يظن أنه ناج من الناس وأن القدر قد وفى له مرة ، فإذا بالمنغّصات تنساق وإذا بجو باريس يفد إليه ويجثم بأشباحه فى « الأرميتاج » وتصله أنباء وأنباء لا مهرب منها . فيفيق من حلمه مذعوراً ليعلم أنه خسر صديقيه « ديدرو » و « غريم » فقد كانا ينصحانه بأن يطلّق حياته القديمة وأن لا يعيش بعد شهرته فى حياته عالة على الأغنياء والسادة والسيدات ، فذلك لا ينسجم مع أقواله ضد هؤلاء ، وهجومه عليهم وتزييف عيشهم ورسم حياتهم رسماً مزرياً . وأصبحا يزوّجان عنه ما لم يكن فى الحسبان ، بل يتآمران مع « أم تيريز » وقد هالها أن ينصرف روسو عن شريكته « تريز » إلى هوى مكشوف ولقاء مشهور مع السيدة « ده دوتو » ، فهى تدافع عن ابنتها وعن عيشها حين غدت فى ألسنة الناس ، يعلمون من أمر الكاتب الفيلسوف أنه غرق فى بحر من الهوى والخيال والتأمل والحلم .

وشعرت مضيفته « السيدة ده بينه » بأن « روسو » انصرف

عنها كذلك إلى هذه الشابة الوافدة ؛ وأن هذا ماس بكرامتها وقصرها وإخلال بضيافتها . فلعبت فيها الغيرة والحسد حتى دفعته إلى صحبتها فى رحلة إلى جنيف ؛ ليعرض عليها بلده ومشاهدها التى يعرف أكثر من يعرف . ولكنه رفض وأثار رفضه حنق ديدرو وغريم ، وقطعت « ده بينه » كل ما بقى من صلات حارة بينه وبينها . ولم يبق من عذر لبقائه فى « الأرميتاج » فانتقل فى ١٥ ديسمبر ١٧٥٧ إلى بيت متواضع فى طرف الغابة[١] . والشتاء جاثم على كل بيت ، والثلج يحاصر كل مكان ، وغادر جنته التى لبث فيها سنة وبعض السنة ، وقد عقد العزم على هجر الأغنياء تمشياً مع مبادئه الجديدة ، ليخلص لنفسه ، فلن يسلى ضيوف « مدام ده بينه » ، ولن يستدعى فى كل حين لتقبل الزيارات والرسميات ، وهو سيمكث على أطراف الغابة نفسها ويستوحى منها فى بيت فقير كما يستوحى فى قصر منيف . فليس من صديق فى الوجود ؛ والناس يحسدون كل عبقرى ، والكتابة وحدها هى الحكم الفصل فى شهرة الكاتب ، تفرض على الدنيا احترامه وخلوده .

ولكن الظروف فى الحياة كانت أسبق من خيال روسو ،

---

(١) دعاه صديق له فى أن يسكن عنده هو السيد « ماتاس » فقبل .

وأبعد من ، أن تهب له الراحة والقرار والعزلة ؛ يخلص لكتبه وآثاره . فقد حدث أن « فولتير » انتقل إلى بيت له على أبواب جنيف ، فى سنة ١٧٥٥ . وحاول فى شهر مارس لتلك السنة أن يتسلى بمشاهدة مسرحية له تمثل فى المدينة ؛ فاستدعى أحد الممثلين . ونجحت المسرحية وصفق لها الرهبان ومجلس البلد ؛ وأراد فولتير أن يستمر التمثيل على يد أبناء جنيف نفسها ؛ فرفض الرهبان وأبى المجلس ، وأقسم فولتير أن ينتقم وأن يثأر ؛ وأن يجعل لهذه الحاضرة مسرحها .

فلما وفد الفيلسوف « دا لامبير » إلى جنيف ليكتب عنها فى (الانسكلوبيديا) ، رحب به أهل البلد ورؤساؤها ؛ ودعاه فولتير ، وأدخل فى روعه الانتصار لمسرح فيها ؛ فكتب مقاله فى نوفمبر ١٧٥٧ ؛ وقال فيه متسائلا : لم لا يكون لجنيف مسرح ، وهى فى فهم طيب وذوق حسن ؛ وأساقفتها من خير رجال الدين بل هم مثال رائع فى العالم للوعى وسعة الصدر .

فلما جاء روسو هذا المقال ثار وهاج ، وتصوّر أن فولتير يريد اتعاس وطنه ؛ فراح يكتب « رسالة إلى دا لامبير » أتمها فى ثلاثة أسابيع ، وهو فى « مونمورنسى » بالبيت الجديد الصغير . قال فيها إن المسرح ليس إلا لهواً وتسلية . فلا يسمح بوجوده إلا حين الحاجة إليه . وهو يختلف بحسب القطر

والزمان ، ولن يغير من الطباع وإنما يثقل عليها . فلا يبث شيئاً فى النفوس ولكن الطبيعة هى التى تبث وتوحى . ولا يفد الناس إلى المسرح ليتلقوا دروس الأخلاق والخير ، وذلك لأن ما يرونه شىء عابر . وقد يبكى المجرمون ولكن الدموع لا تدل على شىء فى تغيير العادات . وموليير أعظم كوميدى ولكن مسرحياته مدرسة للرذائل وشرّ العادات ، فهى تعتمد على الحيلة والكذب .

والمسرح يسلى ويشغل عن الأعمال اليومية ، فهو خطر فى المدن الصغيرة ، وجنيف غنية لكن سكانها لا يتجاوزون (٢٤ ألفاً) فكيف يعيش فيها مسرح . وسكان مدينة ليون لا يملكون إلا مسرحاً واحداً وعدد نفوسهم خمسة أضعاف نفوس جنيف . وليس فى باريس على كبرها إلا ثلاثة مسارح . ولأهل جنيف ذوق مختلف ، فهم ينصرفون غالباً إلى الريف ويعيشون خارج المدينة ، ويحيون على نواد تضم الرجال والنساء كلاًّ على حدة ، فإذا أحيينا المسرح قتلنا هذه المجتمعات الحلوة الصافية ، ونقلناهم إلى تهريج لا يفيد ، وإنما يزرع المفاسد ويضيع الوقت ، ويسجنهم داخل جدران أربعة فى فى ظلام دامس .

وراجت هذه الرسالة وتخاطفتها الأيدى ، وأثارت الاختلاف بينه وبين الفلاسفة ، وأعجب دالامبير نفسه بعبقريته .

ولكن فولتير وقف عن الابتسام وغضب حين قرأها ، فكانت قطيعة بينه وبين روسو : وسباب وانتقاد ، وعبثاً حاول روسو أن يعتذر وأن يسترضى ولكنه لم يغفر له أبداً هذا الهجوم ، وانضم إلى ديدرو وغريم ، والسيدة « ده بيني » ففقد الرجل صداقات كثيرة . وغدا يحسب أن الحساد تكاثروا وأن الأعداء على بابه وفوق رأسه يترصدونه ، ويتصيدون معايبه وأخطاءه ، فأصبح وحيداً فى المجتمع ، كأنه فى الغابة وحده .

فيلسوف الشعب

كتب روسو فى اعترافاته وقد تجاوز الخامسة والأربعين يقول : « كنت غالباً مريضاً . سواء فى الأرميتاج أو فى مونمورنسى ، يداهمنى الطفيليون المتفرغون ، أعمل نصف النهار فى النسخ والكتابة . فإذا وُزنت كتاباتى خلال ست سنوات عرف الناس أنى لم أضع وقتاً أبداً » . وكلام الرجل صحيح صادق ، فهو لم يضع ساعة إلا فى العمل لما خلق له ، وخاصة فى هذا البيت الجديد على طرف الغابة منذ انتقل إليه فى ١٥ ديسمبر ١٧٥٧ — كما قلنا — وإذا كان قد بدأ كتابة « هلويز الجديدة » فى الأرميتاج فقد أنهاها فى « مونمورنسى » كما أتمّ « رسالته إلى دالامبير » ، وكتابيه « العقد الاجتماعى » و « إميل » .

وإذا قيس ما كتبه خلال هذه السنوات بما صنعه فى حياته بدا أنه قام بمجهود جسيم ، على مرضه وما كان يداخله من أفكار غريبة يزيدها ضراماً خصامه مع ديدرو وغريم والسيدة ده بينى ، إذ كان يشعر أنه كرّه إلى الجميع ونبذه الرأى العام . وقد سارت أنباء عزلته ، وأخبار حبه للسيدة

« ده دوتو » ونكرانه جميل مضيفته ، إلى خيال مريض يجسم الوهم ، ويحصى الوقائع . فكأنه كان فى ألم دائم بجسمه وعقله . ودهمه شتاء مرير فى غرفة معرضة للريح والثلج ، لا يدفئه فيها إلا حرارة قلبه — كما قال — ولا تشغله إلا كتاباته المتلاحقة .

ومن العجيب أن تهبط عليه هذه المرة رحمة جديدة ، ذلك أن المرشال « ده لوكسمبور » وزوجه عرضا عليه أن ينتقل إلى قصرهما القريب فى طرف الغابة كذلك ليعيش أبداً فى الغابة ، كما كان من قبل على شروط حسنة لصحته ورفاهيته . ومن العجيب أنه يهاجم الأغنياء والعظماء ويحتقرهم ، فإذا عرضوا عليه أن يكون ضيفاً سار إليهم وأصبح فيهم ، كأن القدر كتب عليه أن يبقى بقربهم ويعرف دخائلهم .

وهكذا انتقل سنة ١٧٥٨ إلى القصر ، معززاً مكرماً ، بعد إلحاح من مضيفه وتردد منه . وطفق يقرأ على زوجة المرشال مخطوطاته ، وكان يقرؤها على تيريز وأمها من قبل ، فتلبث الأولى خرساء وتنخرط الثانية فى البكاء معجبة . وكانت مضيفته هذه على ذكاء واسع ، تهتم بما يكتب ، وتستحثه على إتمامه ، حتى نشر هلويز سنة ١٧٦١ . وأتم كتابة « إميل » وأودعه المطبعة . وقد وقع مريضاً طريح الفراش فى خريف هذه

السنة ، وساورته الشكوك فى مصير كتابه ، وخيل إليه أن أعداءه يتلفونه أو يحرقونه ، وخاصة الجزويت . ولكن السيدة المضيفة وناشره كانا يهدئان خواطره وهياجه .

وأخيراً صدر « العقد الاجتماعى » فى أبريل سنة ١٧٦٢ ، وتبعه صدور « إميل » فى مايو من السنة نفسها ، بعد شهر واحد . وهكذا صدرت هذه الكتب الثلاثة « هلويز والعقد وإميل » خلال سنتين ، وهى خير كتبه ، جعلته فى الذروة من عصره وبعد عصره ، فكان موضع المجد والفخار فى الآداب العالمية . ولقد سقنا الحديث عن هلويز قبل قليل ، وقلنا إنها صدرت بعنوان : « رسائل عاشقين من سكان مدينة صغيرة فى سفح الآلب ، اقتطفها ونشرها روسو » .

وإذا كانت « هلويز » تعبر عن حلم الإنسان فى سعادة قلبه وحبه . فالعقد الاجتماعى حلم البشرية فى سعادة الجنس وتمكن الحب بين المواطنين . وكان هذان الحلمان يسيران جنباً إلى جنب فى خيال روسو ، يسعى لخير الفرد ولخير المجموع معاً ، لا يغنيه واحد عن واحد ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر ، لأنهما مرتبطان جميعاً كان يتغنى بالجمال للتمتع بالطبيعة وخيراتها ، وكان يقلقه دائماً تفكيره بانصراف الناس عن الخير فى الطبيعة ، فرسم الطريق إلى سعادة الأسرة

والزوجين وحبّ القلبين فى هلويز وأصبح مثلا يضرب ونموذجاً يحتذى . وكان يقلقه كذلك أن ينصرف الحكام عن خير الشعوب ، وأن تفسد أداة الحكم فتعمل لصالح أفراد لا لصالح الوطن كله . لذلك فكر فى الحلم الثانى كما فكر فى الأول ، وانصرف إليه كذلك فى جدّ يجمع الوثائق والمعاهدات والكتب والدساتير لأن كتابه السياسى لا يستخرج من الطبيعة كما استخرج كتابه فى الحبّ من خلال ذكرياته والأشخاص الذين عرفهم .

وقد شغله هذا الكتاب السياسى منذ مطلع شبابه ، وظل يشغله كلما وقعت أحداث فى أوربة . فبدأ فى العمل له حين كان فى البندقية سنة ١٧٤٤ ؛ منذ خمسة عشر عاماً ، وكتب عن « المذاهب السياسية » ولكن كتابته بقيت على الورق حتى كان « العقد الاجتماعى » ، وهو يعلم أن هذا الكتاب لن يثير حالا ما يريد مؤلفه ، وإنما سيعمل الزمان على بثّ آثاره فى العقول ويمهد إلى الثورة .

فهو يكتب ضد الآراء السابقة عن الحكم والسلطة . فيجعل السلطان للشعب . فليس لفرد أن يحكم إلا باسمه . ولا سلطان لفرد على فرد بالقوة ، لأن القوة ليست حقاً . وأن ثمة عقداً بين أعضاء المجتمع هو العقد الاجتماعى ، وهذا العقد

مستوحى من البروتستانتية ومن جنيف نفسها . فقد كان الرجل فخوراً بانتسابه إلى هذه المدينة ، يفكر دائماً بدستور ها . ويحلم بحكومة مثالية فيها . تنقذ مواطنيه مما لقى هو فى طفولته وشبابه . بل إنه يفكر فى حكومة مثلى للشعوب كلها ، معتمداً على أفكار مجردة لا يقبل فيها جدالا ولا نقاشاً ، فينصح قارئه بأن يتمهل فى قراءتها وفهمها وهضمها .

وهو يفتتح بقوله : « ولد الإنسان حراً ، وهو مع ذلك فى القيود بكل مكان » فعلى الشعب أن يرفض الذلّ . ثم يقول :

« إن أقوى الناس لا يكون دائماً قوياً وسيداً إلا إذا حول القوة إلى حق والطاعة إلى واجب . » ؛ « وليس لرجل سلطان طبيعى على رجل آخر . والتعاقد أساس كل سلطة شرعية بين الرجال ، والرجل الذى يقبل أن يكون عبداً لغيره لا يمنح نفسه فحسب وإنما يبيع شخصه لكسب عيشه » . فكيف يبيع الشعب نفسه ؟ والملك لا يستطيع أن يهب المال لأنه يأخذه من الشعب . « فإذا كان الرجل يبيع نفسه مجاناً فهو أحمق وعمله غير شرعى . والشعب الذى يبيع نفسه شعب مجنون ، وليس الجنون حقاً من الحقوق » .

« وإذا استغنى الإنسان عن حريته فإنه يستغنى عن صفته كإنسان ، فيضيع حقوقه وواجباته » ويتحدث عن الحكومة

فيقول : « إن الملوك يريدون أن يحكموا مطلقى الإرادة . والناس يصيحون بهم إن أحسن أساليب الحكم هو أن تحكم الشعوب . فالسلطة التى تنبعث عن حب الشعوب هى أعظم سلطة » .

« إن من رغبات السلطان أن يكون الشعب ضعيفاً تعيساً لا يقاوم . مع أن العكس يجب أن يقع ؛ ففائدة الملك هى فى أن يكون هذا الشعب قوياً ، لأن قوته تكون لقوة الحكم فيخافه جيرانه» ؛ « والعيب الأساسى الذى يعلى الجمهورية فوق الملكية هو أن الرأى العام لا يرفع فى الجمهورية إلى صفوف الحكم إلا رجالا مستنيرين أكفاء يؤدون واجباتهم فى غبطة . وأما فى الملكية فهم غالباً من صغار المشعوذين ، وصغار الدساسين ، وأصحاب المواهب الحقيرة ، يصلون بهذه الصفات المشينة إلى البلاط ، فيقف الجمهور على غبائهم وجهلهم » .

ويسخر روسو من تعاقب الملوك على التوارث ، لأنهم عند موت الملك ينتظرون التلاحم والتنافس ، فيحل الإرث محل التصويت والانتخاب . وهذا الوريث لا يملك ثقافة ولا تربية مهما عمل أساتيذه فى سبيله « وأكبر الملوك الذين ذكرهم التاريخ لم يتعلموا كيف يحكمون ، فذلك ليس من اليسير ، لأنه علم له خبرته وشروطه . « وللخروج من هذه المـــآزق والأخطاء يجب

أن ينتخب الحاكم من أفراد الشعب . فكل إنسان ولد حراً سيداً لنفسه لا يقبل أن يحكمه غيره إلا بإرادته . وهو يطيع إرادة المجموع من زملائه وإخوانه أفراد الشعب ويخضع لمشيئتهم ويرضى بالذى يرتضونه رئيساً ، يحكم باسمهم ؛ فقد يخدع هو نفسه فيما يظن أو يقترح ، ولكن المجموع لا يمكن أن يكون كله على ضلال . فإذا كان الرئيس فى الجمهورية اختار الشعب له معاونيه على كفاءات عظيمة ومواهب جليلة ، فى الحربية والمالية والعدالة وغيرها ، وأما فى الملكية فالملك هو الذى يختار أعوانه ، لأنه وحده الذى يختار ، فيكون الذين معه تحت رحمته وفى ظله ومنفذين لرغباته الشريرة أو الخيرة .

والمؤلف يشترط أن يكون هناك ميثاق اجتماعى وعقد مشترك ، كلّ يتعاقد فيه بدوره مع المواطن الآخر ، ليحمى كل منهم حقوقه. ويقوم بواجباته . وعلى كل مواطن أن يخضع لإرادة الشعب ، كما يخضع الجسم للرأس ، وأن يفهم مدى النفع العام ، وقيمة العدالة الاجتماعية ، وأن يجعل ذلك كله فوق كل شىء حتى فوق الأنانية الشخصية . والذين يخرجون على إرادة الشعب يخرجون على حقوقهم فيجب حرمانهم منها كأنهم أعداء شهروا الحرب على الشعب كله ، لأن القضية تصبح حينئذ فى سلامة الوطن ، فإما أن يزول الوطن أو أن

يزول المجرم الخارج . والمساواة مفروضة فى كل شىء عند الغنى والفقير ، المقرب والبعيد دون طغيان أحد على أحد . فليس من الخير أن يكون هناك فقير معدم وغنى متخم ، فيشترى الغنى بماله كلّ فقير ، ويعدو على أفراد الشعب فيجعلهم أرقاء عبيداً له .

إنّ أعظم الحكومات هى الحكومة الديمقراطية ؛ فهى تسعى لازدهار الشعب وهيبته ورخائه . وليس من السعادة أن تعيش فئة من المواطنين على غذاء يكفى فرداً واحداً . وفى البشرية شعوب تعيش على تعاسة نادرة . فالملايين من الآدميين فى الهند لا يكلف غذاؤهم اليومى ما يكلف فئة صغيرة فى شعب متحضر ديمقراطى . والإسبانى يعيش ثمانية أيام من غذاء يكفى لواحد من الألمان . والانكليزى يثقل مائدته باللحوم ، والإيطالى يزينها بالسكر ، والأمراض تفتك بالشعوب التى لا تصل إلى اللحم أو السكر أو الغذاء العادىّ .

ويختم روسو بالكلام عن الدّين ، ويقف فيه ضد النظريات المسيحية كلها ، ويعادى الكنيسة ، فلا يرضى بأن يكون ثمة سلطانان مدنى ودينى . ولا يقبل بأن يكون هناك فرق بين الفرد والفرد فى الطبقات من غنى وسلطة وجاه . فقبل الأديان كان الناس متساوين سعداء فى رأيه . وديانة الإنسان

فى نظره تكون بغير معابد ومذاهب ، وإنما هى عبادة داخلية للإله فى خدمة الأخلاق . وأما ديانة المواطن . فهى ديانة وطنية صرفة فى خدمة وطنه ، طقوسها وعاداتها واضحة تفرضها القوانين ويتخذها أبناء الوطن . فلا ازدواج فى العبادة والطاعة . ولا تسلية لمواطن فى إظهار عبادته أمام الناس ، ولا رؤساء فى نصح الشعب وهدايتهم والسعى إلى خيرهم إلا من هؤلاء الذين اختارهم الشعب قضاة وهداة . وإذا نظرنا إلى الإنجيل كان الناس كلهم إخوة حقاً لا فاضل ولا مفضول .

وهذه الآراء ضد الدين والكنيسة تجمعت فى رأس روسو منذ صباه على آلام تجاربه الشخصية وهى فردية نادرة . فصبها على الورق فى نقد لاذع وأسلوب مرّ قادح ، لا نستسيغ أن نورد منها ما لا يحلو ، فنحن لا نؤرخ ما وقع للمسيحية من أعداء وأنصار ، ولا نريد أن نعرض الحلول والمناقشات ، وإنما نريد أن نبسط آراءه لنعرف لماذا وقف ضدّه رجال الدين وهاجمته الكنيسة ، وعدا عليه النبلاء ، ووقفت أمامه الحكومات ، واضطرته إلى التشرد والنفى حتى آخر أنفاسه ، بسبب هذه الآراء ، وهذه الصفحات .

وهذا الكتاب خلاصة تفكير طويل حشد المؤلف له فكره ووثائقه ، فلم ينقطع عن العمل له أبداً كأنه جزء من مهمته

وأمانيه . فكر فيه حين كان فى السفارة الفرنسية بالبندقية — كما قلنا — وقد وقف على أوضاع السفراء فى الدول وخاصة لفرنسة ، وعرف حال الحكومات وأعمالها ، فعزم على نقد الأوضاع ورسم خطة لحكومة مثالية . وفى سنة ١٧٣٥ طرد أهل « كورسيكا » حكام « جنوة » من جزيرتهم لأنهم كانوا مستبدين ، فكتب إليه أحد السكان يقترح عليه دستوراً للجزيرة ، ولكن « روسو » شغل عن الجواب بكتبه الأخرى . وفى سنة ١٧٦٩ ، قرر البولونيون أن يطلبوا إلى الكتاب السياسيين إنشاء دستور لبولونيا ، فكتبوا إلى روسو كذلك ، فأنشأ مائة صحيفة عن حكومة بولونيا وإصلاحها المرصود . وهذا يشهد بشهرة الكاتب فى أوربة كلها ، وانتصاره فى «خطابيه» ووقوف العالم على ما كان منه من سداد فى الرأى وعظمة فى الأسلوب ومعرفة بالسياسة ، كما يشهد بأن الرجل كان على إطلاع بكل ما يجرى فى أوربة ، واتصال بالمذاهب السياسية وأحداث الأمم وثوراتها وتواريخها ، فلم يكن يجرى فى حياته وفى تآليفه على اعتباط أو سطحية أو ارتجال .

ولقد شهد النقاد بأن كتابه كان شاملا سديد الخطى ، ولكنه كان إلى ذلك غامضاً فى بعض فصوله ، يعتمد على حسّ الجبر والرياضيات والمنطق والمحاكمة ، فلم تندفع إليه

العامة لعصره قبل أن تتناوله أقلام الزعماء والسياسيين وقادة الشعوب ، وخاصة فى القرن التاسع عشر والعشرين .

والآراء فى أكثرها كانت مطروقة قبله ، كتب فيها مؤلفون من الإنكليز والهولنديين والألمان وغيرهم ، بل كتب فيها أفلاطون ومكيافيلى ومونتسكيو ، ولكن روسو خرج بفكرة ثورية ، كتبها لأهل جنيف وحكومتها ، فكانت للإنسانية كلها وللشعوب جميعها . فدوّت جمله فى كلّ مكان ، وحفظتها الأجيال بعده ، وردّدتها ، معجبة بجرأة الرجل وصراحته ، فقد قالها فى فرنسة حين كانت صورة للاستبداد والتفسخ . فارتجت لها الأركان ، واهتزت الأبنية ، وتصدّع الملك بعد قليل . وقد كان الكتاب والمفكرون لا يكتبون إلا فى حذر بالغ وخوف ملحّ على أنفسهم ، وكان الاضطهاد والظلم من آلات الحاكم وأسلحته ، وكانت حرية الكتابة معدومة ، والرقابة مسلطة على الرؤوس ، وكم عذّب كتاب ونفى مفكرون وسجنوا لمجرد التعرض للكنيسة .

ولذلك كان من أعجب العجب أن ينهض روسو وفولتير للكلام عن الحرية والحكم . وقد انتصر روسو للفقراء ، ودافع عن الشعب ، ورسم للإنسانية طريقها المثلى ، وخط للعدالة الاجتماعية خطوطها البارزة ، وأراد أن يكون الشعب كلّ

شيء ؛ لأنه ولد فيه وعاش معه .

وأما فولتير فقد كتب كذلك ، ولكنه أراد أن تنتقل السلطة من الكنيسة إلى المفكرين والعقلاء وهم فى نظره الأشراف والأمراء ، وذلك لأنه من طبقة الأشراف ، فكان حرًّا فى آرائه ، مترخصاً فى تدّينه ، يعتقد أن العقل والتفكير وقف على الأغنياء دون الفقراء فالأشراف وهو منهم خلقوا ليحكموا ، والفقراء خلقوا ليعملوا ويشتغلوا ، يتلقون الأحكام ويطيعون الحكام ، وهذا بعض الفرق بين الرجلين . وهذا هو السبب فى انتصار روسو وفوزه فى طبقات الشعب حين أتيح للشعب أن يتسلم السلطة وأن يحكم ، فرفعوه إلى مراتب المجد والتقديس ، وجروا على هدى آرائه وحكمه . وإذا كان فولتير قد أغضب الكنيسة فقد أرضى الأشراف والأمراء ولهم سلطان ونفوذ كبير . ولكن روسو أغضب الطبقات جميعاً ، واعترف بطبقة واحدة هى الشعب لأنها مصدر المال والمجد ومعدن العمل والبناء والفخار ، فعلى أكتاف الشعب يبنى الوطن وبسواعده ينهض فهو فيلسوف الشعب ، وناصر الشعب ، وكاتب الشعب .

وإذا كانت الآراء — كما قلنا — قد جاء بعضها على لسان غيره قبله ، ولكنه وحده جرؤ فى عرضها من جديد لذلك العصر وفى فرنسة بالذات ، فكان معرضاً للسجن ، وكان

كتابه معرضاً للإحراق . ومع ذلك صاح بأعلى صوته مجاهراً فى خدمة الإنسانية . وشخصية الإنسان . فثار ضد الحكام الذين سماهم ذئاباً . ولم يخش أن يغترسوه فيما يغترسون .

ومبادئ روسو هى المبادئ الديمقراطية التى تسير عليها الحكومات اليوم . قالها ابن الشعب . واستخرجها من صميم تجاربه الشعبية . لم يتخرج من جامعة ، ولم يمارس الحقوق المدنية . ولم يتعلم المبادئ السياسية ، ولكنه أصبح الأستاذ فيها تأخذ عنه الجامعات . ويردد أقواله الزعماء فى كل قطر حين يسعون إلى تحرير شعوبهم ، ويستعيدون عباراته حين يخاطبون ضمير الشعب والأمة . وهى لسان الثورة فى كل شعب مستعبد . وكتاب الحرية فى كل وطن مستعمر ، وصحائف الخير فى كل أمة متخلفة ، لأنها تساوى بين الغنى والفقير ، الضعيف والقوىّ ، وتجعل الحكم للشعب ، وتفرض على الحكومة أن تعمل لخير الشعب وصالحه ورفاهيته فى نواحى الحياة كلها . والعقد متمم لرسالته فى « عدم المساواة بين الناس » بل موضح لها ، ينبذ كل تفريق ولا يعترف بنظام الطبقات ولو اصطدم بكل المقدسات .

إن كتابه من أسس الثورة ، قال فيه ميرابو : « علم فرنسة المبادئ النظيفة فى الحرية » ، وكان « مارا » زعيم الثورة يقرأ

صحائف « العقد » على الجماهير المتظاهرة فى شوارع باريس ، ويرتله ترتيلا فى جموعهم . وهذا حفظه العمال والفقراء وقدسوه لأنه كان نصيرهم ومحاميهم ؛ وأعجب به رجال الفكر والأدب لنصاعة بيانه ، وقوة حججه . وعم فى الدهماء حتى قال نابليون : « لو لم يكن روسو ما وقعت الثورة الفرنسية » . فهو الذى بذر بذورها ، وساعد على انتشار أفكارها فى جملة الكتاب الثائرين .

ولم تؤثر مبادئ روسو وآراؤه فى فرنسة وحدها ، وإنما كان لها أثر كبير فى تحرير الولايات المتحدة وفى كيان الأمم الديمقراطية وفى الثورات الشعبية . وتأثر بها كتابنا العرب فى نهاية القرن التاسع عشر . وخاصة عبد الرحمن الكواكبى فقد سار على هديه ، وأخذ بأفكاره[1] ، وأضاف إلى ذلك من مبادئ العرب وعدالتهم وآرائهم فى الديمقراطية والمساواة ، حتى ظن المعاصرون أنه نقل منه حرفياً ، ولكن الكواكبى كان عبقرية فى العرب تأثرت كما تأثر الزعماء بريح العصر وقد هبت من جانب روسو وزملائه .

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك كتابنا عن « عبد الرحمن الكواكبى » فى نوابغ الفكر العربى طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨ .

إنجيل التربية

« إميل هو إنجيل المعلمين »

« غوته »

رسمنا خلال الصفحات الماضية بيت روسو وعيش أسرته ومدينته . وعرفنا بعض جناية الآباء على الأبناء واستهتارهم ، وتصرفهم حيال الوديعة التى تسلم إليهم ، فيسلمونها إلى الناس ، ويتلقفها النقاش والمحامى والقسّ ، ويصبح « جان جاك » خادماً فى البيوت ، فلا يدخل المدرسة ، لأنه لا يملك ما ينفقه فى سبيلها . فإذا أعوزه أن يدرس أمور الكنيسة ليصبح راهباً أعجزه ما يثقل كاهله من نفقات ، فيقف دون ذلك ويُتمّ طوافه على البيوت يستجدى خدمة يدخل فيها ، فإذا سمع بالثقافة جرى وراءها وتعلم عن الأفواه ما وسعه أن يتعلم من لغات وفنون . وإذا عرض له فراغ قرأ وقرأ لنفسه من غير أن يختار ، توضع أمامه الكتب من غير تعيين لسنه ومداركه ونفعه .

فإذا دخل الدير والكنيسة ، عرف الكتب التى تقرأ فيها ، والأساليب التى يتعلم فيها السالكون ، والتربية الممارسة فى

جنباتها ، وخرج من ذلك كله إلى قصور الأغنياء ليرى ثقافتهم وحوارهم ومناقشاتهم ، ونظرتهم إلى العلم والأدب والفكر ، وضياع الوقت بقربهم . وإفلات الحياة من أيديهم إلى غير نفع .

وأدركنا من ذلك كله أن « جان جاك روسو » حرم من نعيم القلب ، وإنصاف المجتمع ، ولذة التربية ، فانتقم لذلك كله ، وأرسل فى الأجيال روايته الخالدة تهدهد القلب على أنغام الهوى البرىء وتهزه على أناشيد العاطفة الصافية ، وتسكره بكئوس الحب العذرى فكانت « هلويز الجديدة » . ثم كتب للشعب من أهله وأهل البشرية جميعاً كيف يكون المجتمع المثالى ، وكيف تصان الحرية ، وتضمن الحقوق ، وتؤسس الحكومات ، ويعمل الوزراء والأغنياء ، وينصف الفقير ، ويحمى الجائع ويكسى العريان ، فكان كتابه « العقد الاجتماعى » . فتغنى المحبون « بهلويز » حتى غدت سلوى كل عاشق وأنشودة كل بيت . ورتلت الجماهير الشعبية صفحات العصر فغدت إنجيل الثورة وكتابه . والآن يكتب روسو كيف يربى ويهذب ويعلم ، فيصبح كتابه « إميل » مثابة لكل مدرس ومرجعاً لكل أم ، وملاذاً لكل بيت . فكيف ألفه ؟

تساءل النقاد الخبثاء من أخصامه كيف يكتب « روسو »

كتاباً فى التربية وهو لم ينل حظه من التربية الخلقية والعلمية ؛ وحين أراد أن يعلم أولاد السيد « مابلى » فشل أشدّ الفشل . وإذا كان يربى أولاد البشرية فلماذا لم يعن بأطفاله من شريكته « تريز » فألقى بهم فى ملجأ اللقطاء ؟ ألم يكن يحسن أن يلقى على الناس درساً يقوم به قبل الناس ؟ وهل كانت حياته صورة للتربية الحسنة ؟ .

إن الجواب هين سهل . فقد يفشل الفيلسوف فى حياته العملية ، ولكن فشله لا يمنعه أن يكون أوسع انتصاراً فى كتاباته النظرية . فقد أفادته تجارب فشله القاسية وأراد أن يجنب غيره مواطن الزّلل التى عرفها بعد تفكير . والمدهش فى عمله لا يقع من مناقضته للعالم كله ، ولكن من حدّته فى إبداء آرائه كأنها مسلمة من غير نقاش — على عادته — .

ولقد أراد أن يهدم عصره وينقده ، فسلك إلى تصويره صورة شنيعة ، ورأى أن لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالتربية . والتربية لا تكون إلا حين نبدأ بالطفل ، وبعدها ننتظر أن يكون رجلا حقاً . والمجتمع وليد عادات حسنة أو سيئة نغرسها فى نفوس الأطفال والشباب .

والقرن الثامن عشر تنبه إلى هذه النظرية ، فأقبل كثير من المؤلفين على الكتابة فى التربية لأنها كانت تشغل أفكار

كثير من معاصريه ، ولكن « إميل » جدد النظر فيها على عادة روسو فى أصالته حين البحث والتأليف . فآراؤه تدور حول القرن الثامن عشر وفساده وانحطاطه لا تقدمه ورفعته ، بالرغم من كثرة العلماء . فكثرة العلم تدعو إلى الشهوة والتعاسة لأنها تبعد الإنسان عن الطبيعة ، وحين يبتعد عن الطبيعة يضلّ ، فلا سبيل إلا إلى عودته فى حاله الأولى أو أن يقف سيره ، أو أن يفتش عن أقرب نقطة لانطلاقه .

والكتاب فى خمسة أبواب أو كتب ، يتتبع المؤلف فيها خطى الطفل حتى زواجه ، فكأنه يروى حادثة أو قصة وقعت ، تقطعها الأفكار والمناقشات . فالكتاب الأول يعالج الطفل وهو وليد حتى يتعلم المشى والأكل والكلام . والثانى حتى الثانية عشرة ، والثالث من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة ، والرابع يعنى بالتربية الأخلاقية والدينية . والخامس ، يتكلم عن زواج الشاب ، والفتاة التى يزف إليها ، وتربية الفتيات .

ويبدأ الكتاب الأول بجملته المشهورة : « كل شىء يخرج حسناً من يدى مبدع الأشياء ، ولكنه يتشوه بين يدى الإنسان » وهذه الجملة تلخص كلّ تفكير روسو . فهى تبدى وتعيد فى الهجوم على المجتمع والفنون والعلوم ، وتفرض

الدواء فى الرجوع إلى الطبيعة . ثم يقول : « إن الإنسان حين نتركه لنفسه منذ ولادته بين الناس يصبح أسوأهم . فالسلطة والحاجة والمذاهب الاجتماعية كلها تقتل الطبيعة فى نفسه ولا تعوّضه شيئاً مكانها » . ثم يبسط طرق التربية . فيرى أن إحداها تأتى من الطبيعة . والثانية من الناس . والثالثة نتلقاها من الأشياء . « فيجب أن نختار بين أن نجعل من الطفل إنساناً أو مواطناً . ونستطيع مع ذلك أن نجعله كليهما معاً » . وأحسن الطرق هى التى تنتزع من نفسه كلمة « أنا » لتدخله فى وحدة عامة . فالفرق كبير بل مضادّ بين المواطن وبين الإنسان . ويختصر الطريق فيقول : افعلْ كلّ ما تراه معاكساً للحال الموجودة فى التربية آنذاك .

ويرى أن أول مرب هو المرضع . فيلزمها نقداً بارعاً ، ويتساءل : هل يمكن أن نقبل تربية طفل لم يخرج من غرفته أبداً ؟ فإذا مشى خطوة على الأرض أو نزل درجة من سلم حسبنا أننا فقدناه ، فالواجب أن نمرنه على ممارسة التعب لا على تحمله . وليست الحياة فى أن يتنفس بل فى أن يتحرك ، والإنسان لا يعد عمره بعدد السنين التى عاشها ، وإنما بالسنين التى أحسّ فيها بالعيش : « إن الإنسان المدنى يولد ويعيش ويموت فى العبودية . فمنذ ولادته نضعه فى قماط نخيطه

عليه : وحين موته نسجنه فى نعشه » . وحكاية القماط أسالت مداداً قبل وجود روسو وبعد عصره حتى اليوم . وما زال العلماء والمختصون يحيكون حولها برد البحوث والمقالات .

ثم ينتقل إلى الرضاع فيدعو إلى حليب الأم ويحرّم كل حليب غيره . فيسدى خدمة إلى الأبناء والأمهات . ويرجو أن تكون تربية الطفل خشنة لأنها سنة الطبيعة التى لا ترحم وأكثر الأطفال يموتون فى الثامنة لضعفهم ورقتهم . وينصح الآباء فى التلطف داخل البيت فالأم هى المرضع الحقيقى والأب هو المعلم الحقيقى . فهو لا يجد معلماً خارج البيت يقوم بتدريس الأطفال تدريساً حسناً مثل الأب والأم . ومربى الأطفال يختاره الأبوان . ولكن له أن يختار هو كذلك تلميذه ، فهو لا يرضى بتعليم طفل مريض .

ويقول فى بيان عظيم : « إن المدن هى مقبرة الجنس البشرى . وبعد أجيال ينمحى الجنس أو يشوه ، فيجب تجديده ، والريف هو الذى يسدى إلينا جميل التجديد » . ويعود إلى طفله فينصح له بالحمام على الدوام وبانتظام ، ويترك له حرية الحركة . «وإن تربية الإنسان تبدأ مع ولادته . وقبل أن يتكلم الطفل أو يسمع ، يتعلم » ويجب أن يتعود الطفل رؤية الأشياء البشعة والجديدة والغريبة وكلّ شىء

جميل أو مرعب ، فإذا صادفته مرة لم تفزعه ؛ وكذلك تعويده الضجة .

ويحب الطفل أن يلمس كل شيء ، فعلينا أن نمرّن حواسه كلها . وأما لغة الطفل فالمرضعات يعرفنها قبل الناس ويفهمنها عن الأطفال كأعلم من يعرف . ثم يقول : « إن أول بكاء للطفل هو التماس ورجاء ، فإذا لم نلتفت إليه أصبح بكاؤه أمراً ، وأحياناً يبكى الطفل لا لطلب العون وإنما للعبث ، فإذا كنتم لا تستطيعون عونه ، فالبثوا مكانكم لأنه إذا عرف كيف يشغلكم بأمره ، أصبح سيداً بعد قليل ، وهنا الطامة الكبرى » . ولذلك يجب أن لا نهتم أو نخاف بكاءه العابث ، فلا نلتفت إليه .

ومن الخير ألا ندفع الأطفال إلى الكلام قبل الأوان . وأطفال الريف يلفظون الكلام أحسن من أبناء المدن صغاراً « واللهجة هى روح الكلام ، تمنح العاطفة والحقيقة » .

* * *

أما الكتاب الثانى ، فيبدأ بالطفل من سنّ صغيرة ، من الشهر الثامن عشر حتى السنة الثانية عشرة أو الخامسة عشرة . ويعالجه بالتربية السلبية . ويرى أن المهم فى التربية هو ألا نربح الوقتَ وإنما أن نخسره . وكثير من المربين والأساتذة

يهرعون إلى تعليم الطفل وتثقيف فكره ، وتكوينه ، ولكنه على عكسهم تماماً ، يقول : « إذا استطعت أن تصل بالطفل قوياً سليماً إلى سن الثانية عشرة ، من غير أن يميز بين يده اليمنى ويده اليسرى . . . بأن لا تفعل شيئاً ، فقد فزت بتربية مثالية » . ويثور المؤلف ضد الوحشية ، التى تخيف الأطفال ، وتعدهم لشىء معين فتضيع أحسن سنى أعمارهم سدى .

إننا نربى الأطفال دائماً فى سبيل سعادة تنتظرهم . ولكن ما هى السعادة ؟ إن السعادة هى فى أن نقلل من رغباتهم ، أو الإسراف فيها ، وأن نقف بهم عند حدود الحالة الطبيعية . وعلى الطفل « أن لا يكون رجلا ، ولا بهيمة ولكن أن يكون طفلا » . يجب أن نعطى الطفل ما يحتاج إليه ، وليس علينا أن نطيع دموعه .

وروسو يرى أن لا نناقش الطفل بالعقل ، فذلك يبعده عن سنه . وبعد أن يتعلم الطفل المشى والكلام نعوّده أن ينمى جسمه وقواه وحوّاسه. فإذا جرح فإن الجرح سيعوّده الشجاعة ، ومن العبث أن ندافع عنه وأن نحميه بالسلاسل والقيود ، لأننا بذلك نزعج حاضراً خوفاً من مستقبل قد لا يتأكد وقوعه بالشكل الذى نخافه . وهذا شرّ عاداتنا . ولن نأمر الطفل بل نقوده . ونعوّده لقاء الأشياء والتعرف إليها . ولن نلجأ إلى العقوبات

الجسدية وإنما نحول بينه وبين الشر . فإذا استطعنا أن نعرّفه إلى الطبيعة فلنعطه أرضاً صغيرة يزرعها . فهو يحبّ العمل والإنتاج . وعلينا أن نبعد عنه التواريخ والقصص والخرافات . وأن نخفي عنه قصة « الغراب والثعلب » لأنها ضدّ الأخلاق .

فإذا أردنا طفلا قوياً صحيحاً سليما . عرضناه لكل شيء . بأن يمشي عارى الرأس وأن يتحمل البرد في جلد . وأن ينام على سرير غير وثير . وأن يسبح في الماء . وأن يجول في شتى أساليب الغناء . وأن نبعد عنه اللحم .

* * *

وفي الكتاب الثالث يعالج تربية « إميل » بالطريقة الإيجابية . فلن تنفع معه في هذه السنّ الطريقة السلبية . لذلك يدعوه إلى مشاهدة الطبيعة . وإلى النظر في شروق الشمس وغروبها فلا تجريد ولا غموض ، بل مشاهدات يكتسبها . ولا نعلمه العلوم وإنما نمهد له إلى تذوقها ونحبب إليه طرقَ تعلمها ، كأنْ نعهد إليه بآلات يركبها ويسيرها ، ويتعلم ميكانيكية سيرها . ونمرنه على قياس المسافات ، في نزهة إلى الغابة ودزوب القرية ، وطرق الحدائق . ونسائله عن تبدل موضع الشمس أو العيش وحده بنفسه فنسلم إليه كتاب « روبنصون كروزوه » ، ونعوده الصناعات ؛ وأحسنها في نظر روسو هي صناعة النجارة . فإذا تعلّم شيئاً وناقش أمراً عمدنا

إلى الحكم والمحاكمة فنريه طريق التعلم . ويدرك حينئذ سبيل الدخول . ولكننا لن نتركه يبعد طويلا فى هذه الطريق .

وفى الكتاب الرابع : يبلغ « إميل » الخامسة عشرة ، وقد تما جسمه وحسه . فلن نستطيع منع الأهواء عنه ولكننا نعمل على توجيهها واستغلالها . وأول هذه الأهواء محبة ذاته ، فالطبيعة تحوها بعد قليل إلى غطرسة وتكبر أو حسد . ويحسن أن نبين له طريق التعاون والتكاتف مع غيره من أبناء المجتمع ، فلا يرفع عينيه لينظر إلى السعداء والأغنياء فحسب . وإنما يجيل طرفه كذلك فى حال من يستحقون الشفقة والعون . وننبه إلى أمر خطر وهو أن لا ينقد داء فى غيره لم يخل هو منه . أما الفضيلة فنعلمه ممارستها بإبعاده عن الرذيلة ، وأما الصدق فيتعوده بإبعاده عن الخطأ . وكلما تدرجنا فى تربيته نمت حواسه وتطورت مع التربية .

* * *

وفى الكتاب الخامس : يتحدث عن تربية الفتيات ويخصه بهن ، فيتخذ « صوفيا » فتاة مثالية جديرة « بإميل » . ذلك أنها طاهرة عفة مرحة ، فيها فتنة النساء وسحرهن رباها روسو على خدمة البيت وأعدها للسعادة الزوجية ، وجعل لها فى مكتبتها من الزاد الفكرى ما لا يفسد معه لقلها ، فلها أن تقرأ « تلماك » وعليها أن تبقى « جاهلة لطيفة » .

هذه هى الأبواب أو الكتب الخمسة التى صدرت فى كتاب عنوانه « إميل أو فى التربية » أنشأه صاحبه من عصارة تجاربه ومن خلاصة آرائه . ولكنه خطه بناء على طلب السيدة « شونسو » وهى ابنة السيدة « دوبين » التى عرفها أول قدومه إلى باريس ، ورعته فى خطاه الأولى ، وحضنته وشجعته . فلما تزوجت ابنتها وقاربت أن تكون أماً سألت روسو أن ينصحها فى تربية ابنها ، فأجابها إلى سؤالها وكان هذا الكتاب الرائع . وقد فعل فى ذلك كما فعل « مونتنى » قبله حين طلبت إليه سيدة كتاباً فى التربية ، وكما كتب « فنلون » فى تربية الفتيات ، تلبية لإحدى السيدات النبيلات ؛ فقد كثر من قبل تفكير الناس فى تربية أبنائهم ، وحرصوا أشدّ الحرص على ذلك لما كان من فساد التعليم وفوضى التربية . والقرن الثامن عشر ورث علل القرن السابع عشر فى هذا الباب ، فوقع الناس فى الحاجة إلى كتب فى التربية كذلك .

كان القرن السابع عشر يعلم اللاتينية فى المدرسة ، ويدرس البيان اللاتينى فحسب وكان التمرين الوحيد على الخطابة يقع باللغة اللاتينية . وموضوع الأسئلة فى الامتحان كان فوق مستوى الطلاب ، فى الحديث عن قائد كبير أو فيلسوف أو عضو مجلس الشوخ وسن الطلاب بين الخامسة عشرة أو السادسة عشرة .

وجاء القرن الثامن عشر فلم يغير كبير أمر فى التربية . وإن كان قد عرف تدريس التاريخ والرياضيات ، ولكن المسابقات كانت فى موضوع لاتينى دائماً . وبدأ الطلاب يخطبون فى فرنسة باللغة الفرنسية : وهذا جديد .

وكانت الفلسفة تدرس خلال سنتين لا يدخلهما إلا من يريد أن يصبح كاهناً أو محامياً أو قاضياً أو طبيباً ، وظل العلم متغلباً على الفلسفة . ولم يكن ثمة امتحان له نتائجه على المتقدمين إلا عند الذين يريدون أن يدرسوا الفلسفة ليكونوا قضاة أو محامين أو كهاناً . وكان من السهل شراء الشهادات فى جامعات فرنسة أو فى بعضها على الأقل . وصدرتْ فى التربية كتب كثيرة ، ومقالات عديدة ، وخاصة فى مجلة « مركور ده فرانس » واشترك فى إنشائها علماء وفلاسفة . والشعراء أنفسهم استوحوا من التربية . والآراء فى هذه المباحث شبيهة بما صدر عن « روسو » فى كتابه هذا .

وأن « روسو » نفسه يعترف بالكتاب الذين قرأ لهم فى هذا الباب ، فهو يذكر « مونتنى » فى اثنى عشر موضعاً ، والشبه بينه وبين « مونتنى » فى فصوله واضح كبير . ولكن « مونتنى » لا يعرض للتربية السلبية مطلقاً ، بينما روسو يوصى بها لبعض مراحل التربية . وأما الفرق بينه وبين « لوك » فشاسع واسع .

ذلك أن « لوك » يقاوم تعليم اللاتينية والفصاحة ؛ ويطلب أن تكون التربية بالأمثال لا بالكتب ؛ ولكنه يرى أن التربية لذة وسرور لا مهمة ومهنة . ومن هنا كان الفرق بينه وبين روسو .

ومن الصعب ردّ ما للعلماء من دَين فكرى فى كتاب « إميل » فقد علم فى ليون أولاد « مابلى » خلال سنة — كما قلنا — وفى روايته « هلويز الجديدة » أنطق جوليا بطريقة فى تربية أولادها . فقال إنها لا تريد أن تحشو ذاكرتهم ولا تسعى إلى أن تبكّر فى المحاكمة مع أطفالها أو تتبادل الآراء معهم ، بل تتركهم يتعلمون وهم يتلذّذون .

ولكن كتاب « إميل » يحتوى على طريقة خاصة لها مبادئها وتعاليمها ، كأنه ينشئ للتربية معبداً ذا أعمدة طويلة ، يسوق إليه المؤمنين على طريقة مسلية على عكس أسلوبه فى « العقد » . وإذا كان « العقد » جافاً فكتاب « إميل » لين لذيذ حىّ ، يعيش المؤلف فى دقائقه وسطوره ، ويتبعه القارئ فى إطار من الحوادث والحكايات والنزهات ، مؤمناً به متابعاً لطريقته .

وإذا كانت « هلويز » حلم الهوى والغرام فأميل هو حلم التقدم والتكامل ؛ يقصّ فيه المؤلف مواقع حياته ويروى بعض ذكرياته المؤلمة على لسان إميل ، ويمنى نفسه بتحقيق بعض

أمانيه وأحلامه . فينطلق إلى تحقيق الحلم فى صراحة وحرارة .

وقد جرّت آراؤه عليه ويلات ونكبات ، وقفَ له فيها رجال من مختلف الطبقات ، وخاصة من رجال الكنيسة . فقد قرأوا له : إن عاقبة تعليم الدين للطفل هو أن يبقى طوال حياته طفلا فى التعصّب لها والغضب من أجلها ، ونفوره ممن لا يشاركه فيها : فيقع الخلاف ، وتعيش الأحقاد ، فى مجتمع يجب أن يعيش فى حال من هدوء البال وسكينة النفس والإخاء ، بحيث لا يعكر صفوه معكر .

ولذلك فهو يقترح أن تعلم قواعد الدين بعد الخامسة عشرة من عمر الطفل . وطبعى أنه يخالف بهذا الرأى ما جرى عليه العرف وما تتابعت المدارس على تطبيقه حتى ذلك الوقت .

وهو يتناول معجزات الرسل بأسلوب مشكك ، فيرمى الشعبَ والبسطاء بالنقد لتصديق ما يسمعون . ويتساءل عن ملايين البشر الذين لم يتح لهم أن يدينوا بدين ، لأنهم جاءوا قبل الأديان ، أو عاشوا بمعزل بعيد عن رسالات الرسل فلم تبلغهم أو لم يأخذوا بها ، هل يذهب هؤلاء جميعاً إلى سقر ؟ . وأى من الأديان الثلاثة على حق ؟ .

والإنسان ، يقدّسه روسو كلّ التقديس ، ويجعلُ له المحلَّ الأول فى الدنيا وينسب إليه الشر حين يقع الشر .

فلا يؤمن بما تؤمن به الأديان . ويقع من المتشككين موقع المهاجم المكابر . وهو إلى ذلك يوصى بالابتعاد عن كتب التاريخ عند الأطفال — كما قلنا — لأنها تفسد الروح وتدفع إلى حب الدسيسة والخديعة والكذب والنفاق . ويزعم أن الطب كالفنون والعلوم والفلسفة كلها تفسد على الإنسان تصوره للحياة . ولكنه لا يرى مانعاً من الرجوع إلى كتب التراجم وحياة العظماء . لأنها ترسم المثل الحسن وتوسع الخيال .

وهو بعد ذلك كله يرى أن المرأة لم تُخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفن ولا للسياسة ، وإنما خلقت لتكون أماً تعنى بأطفالها وتتعهد ضعفهم بحسن عنايتها . وقد جبلت لتجلب السرور واللهو لزوجها . وهو فى هذا متأخر عن فكرة عصره وزمانه . فمنذ القرن السابع عشر أو فى منتصف هذا القرن قام الكتاب لنصرة المرأة وطالبوا بتعليمها كالرجال سواء بسواء . وكانت النسوة يملأن فى القرن التاسع عشر قاعات الدرس فى علوم الفيزياء التجريبية والتاريخ الطبيعى ، ويزيد فيها عددهن على عدد الرجال . فلا يؤخذ قوله هنا مأخذ الجد والرصانة .

ومهما يكن من أمر كتابه فى الخطأ أو فى الصواب ، فقد نظر إليه المفكرون والكتاب على أنه أقوى كتبه فى التفكير والسمو . فقال غوته : « إنه إنجيل المعلمين » ، واعترف بأنه

ما من كتاب أثاره كما أثاره كتاب إميل . وقال هردر : إنه كتاب علوى ؛ وراح بستالوتسزى وهو المربى العظيم يستوحى من آرائه .

وقد أثر كل التأثير فى عصره وبعد عصره ؛ فألغى نظام الجزويت (اليسوعيين) فى فرنسة . وأقفلت مدارسهم وكانت ١١٣ مدرسة ؛ وأصبح الناس يهتمون بالعلوم التجريبية والحقوق والزراعة . وقد مرّت سنوات بعد صدوره كان محجوباً فيه عن الناس لأنه ملغى ؛ فلما جاءت سنة ١٧٧٠ ؛ بعد عدة سنوات من طبعه . نسى القراء هذا . وغاب عن الأذهان أنه كان عدواً للكنيسة . وأصبحت المدارس تعلم اللغات والتاريخ والرياضة والرقص والرسم والسباحة والرياضيات . وحذفت المدارس العسكرية تدريس اللاتينية من برامجها .

ولكن هذا النصر كلف « روسو » ما لم يكلفه كتاب ؛ فقد انهالت عليه المصائب وكان بدء اضطهاده وتشرده وطرده .

العاصفة

ما كان روسو ينتظر الذى وقع . فقد كان مطمئن البال هادئ النفس . قرير العين . مسروراً لرؤية كتابه « إميل » على الورق مطبوعاً فى هولندة . وقد كان يحسب أن أعداءه يحرقونه قبل النشر . وظن أن آراءه لن تجد النور . وإذا به يرى هذا الأثر الجديد أمامه فى شهر يونيه ١٧٦٢ . وقد تصوّر أنه انتقم لماضيه . وأثار الجيل من رقدته . وسدّ على الإنسانية سبل الشرور والفساد . فلن يقع الأبناء فريسة الجهل والغباء كما وقع خلال طفولته وشبابه .

وزاد الكاتب طمأنينة ورضى ما تلقاه من رسائل وكتب . فى شكره وتشجيعه والثناء على مجهوده ، حتى قال إنه ما أصاب من كتبه ومقالاته ما أصابه من مديح الناس وحديثهم عن « إميل » .

وبدأ الهمس فجأة فى هدوء لطيف ، قبل العاصفة ، فسأله بعضهم لماذا وضع اسمه على الكتاب ، وقال آخرون إنه لم يكن حذراً فى إخراجه بتوقيعه ، فظن الرجل أن الغضب قد ينصبّ على الكتاب ولن يصيبه شىء منه .

وبعد أيام صرح نائب برلمانى بأنه لافائدة من إحراق الكتب ؛ وإنما يجب إحراق مؤلفيها . فلم يعر « روسو » هذه الكلمة أى التفات ، فقد كان فى حمى المرشال وزوجه . ولكنه بعد قليل بلغه أن الأمير « ده كونتى » قد يوقع قراراً بتوقيفه ومحاكمته ، وجاءه من ينصحه بالهرب إلى إنكلترة ؛ فلم يصدّق الرجل هذا الخبر .

ولكنه كان نائماً فى ليلة التاسع من يونيو ؛ فأيقظه صديق فى الثانية صباحاً ليعلمه بأن القرار قد صدر ؛ وأنه يجب أن يبادر إلى الهرب ، فلما اتصل بالمرشال عرف أن الأمر جدّ وأن الكارثة قد وقعت . فجمع أوراقه ، وودع أصدقاءه دامع العين » . وركب الطريق إلى الحدود ، وشهد بأم عينه جنوداً قدموا لتوقيفه ؛ ولكنهم تغافلوا عنه فى قصد خوفاً عليه لشهرته ومعرفتهم بموقعه من المجتمع . فمر بباريس ، وقطع الطريق خلال أيام على مرضه ونحوله وضعفه ، فلما جاز الحدود ، أوقف العربة ونزل منها وجثا على ركبتيه وقبل أرض وطنه سويسرة ؛ وبلغ قرب برن فى الرابع عشر من يونيه وعيناه دامعتان تذكران أول يوم دخل فيه فرنسة وهو فى الثلاثين من عمره وحيداً لا يعرفه أحد ، وغادرها شريداً يعرفه العالم كله ، بعد عشرين سنة وقد بلغ الخمسين . وأقبل إلى « إيفردون » من عمل برن فحسب أنه دخل ملجأ الحرية ، ولكن مجلس جنيف قرر بعد خمسة أيام إحراق « إميل » لأنه ضد الدين ، وكذلك إتلاف « العقد » لأنه

فسدّ الحكم . فلم يكن وطنه بأشد رأفة عليه من فرنسة . وكان ينتسب دائماً فى فخر إلى هذا الوطن وإلى « جنيف » ذاتها . وقررت حكومة « برن » مثل ذلك وطلبتْ إليه مغادرة البلاد .

وسافر الرجل إلى جبال « الجورا » وهى تابعة « لنوشاتل » . وطفق يكتب الرسائل البارعة فى تبرير أقواله ودعمها . والعودة إلى مناقشة الكثلكة . ونقد البروتستانتية التى كان يسميها « مسيحية الإنجيل » . لم يفتر ولم يقف عن الكتابة حتى كان منها كتاب سماه « رسائل من الجبل » . يعده النقاد قنبلة محرقة ضد أهل جنيف . ولكنها لسوء الحظ أحرقت مستقبل الرجل ودفعته من منفى إلى منفى خلال خمس سنوات . وزادت فى إقبال الحكومات على تشريده من أراضيها وطرده . فهجم الفلاحون على بيته ورموه بالحجارة ، وعرف أنه لن يستطيع البقاء : فهرب إلى جزيرة « سان بيير » فى قلب البحيرة من أراضى سويسرة : بمكان ساحر كالأرميتاج . وذلك سنة ١٧٦٥ . وكانت تريز قد لحقت به ، تتشرد بتشرده ، وتعيش فى المنفى معه كما عاشت فى القصور . ولكنه طرد من الجزيرة . فغادرها إلى مدينة « بال » ثم ستراسبورغ ، ثم عرض عليه الفيلسوف الإنكليزى « هيوم » أن يكون ضيفه فى لندن فذهب إليها فى يناير ١٧٦٦ ، ولحقت به تريز . كما لحقت به كتبه . وكان ينشئ « الاعترافات »

تاريخ حياته ؛ ويتم كتابة فصولها .

ولكن سرعان ما اختصم روسو مع صديقه « هيوم » لاختلاف طباعهما . هذا فيلسوف وذاك خيالى ؛ فقد كان هيوم فقيراً شريداً . واشتهر بكتابه « تاريخ إنكلترة » وعمل سكرتيراً لسفير إنكلترة فى باريس . فلم تتفق عواطفهما ؛ ففصلت بينهما ووقع النفور . وفكر روسو فى الإفلات من إنكلترة . وكتب فى ١٧٦٧ إلى المركيز « ميرابو »[١] يقول : « ما أجمل أن يعنى صديق الرجال بعزلة صديق المساواة » .

ووصل « روسو » فرنسة هذه السنة ؛ وراح يطوف فيها باسم مستعار ؛ شريداً خلال ثلاث سنوات . يراقبه رجال الشرطة « البوليس » ؛ ويتنقل من مقاطعة إلى مقاطعة ضيفاً على أصدقائه ، حتى بلغ ليون سنة ١٧٦٨ . فأراد أن يحجّ إلى قبر « مدام ده فوران » فى شامبيرى ؛ ولكنه عدل عن ذلك . ثم قرر أن يجعل الرابطة بينه وبين « تريز » صحيحة بعد خمس وعشرين سنة ، فعقد عليها وأصبحت زوجته ، أمام شاهدين ، وهو أول زواج مدنىّ فى فرنسة .

وضاق ذرعاً بهذا التنقل وهذا التشرد ، فقرر على أن يعود إلى باريس ، فدخلها فى يولية ١٧٧٠ ، ومعه كتابه « الاعترافات » ثمرة جهود استغرقت خمس سنوات ، وهو آخر أمجاده ، ونهاية كتبه القيمة ، وعنده كان نهاية المطاف فى العبقرية والخلود .

---

(١) هو والد خطيب الثورة ميرابو الشهير .

سجل الحياة

كان « روسو » يحسّ دائماً أنه فى حاجة إلى أن يقضى بدخيلة نفسه ، وإلى أن يقصّ حياته . فلما عرض عليه ناشر « هلويز » فى أمستردام أن يقدّم على رأس كتبه ترجمة حياته . وقع الرأى من نفسه موقعاً عظيماً . فكتب أربع رسائل خطّ فيها أوائل « اعترافاته » إلى صديق له سنة ١٧٦٢ . ولكنه قرر سنة ١٧٦٥ أن يكتبها كاملة ، فبدأها فى مارس تلك السنة ، وظل يعمل لها حتى سنة ١٧٧٠ . فخرجت من قلمه على اثنى عشر كتاباً أو باباً — كما يصنع فى تبويبه دائماً — قصّ فيها تفصيل الحوادث التى مرت بحياته منذ طفولته حتى تاريخ مغادرته جزيرة « سان بيير » سنة ١٧٦٥ ، شريداً طريداً ، فلم يكتب بعدها ما وقع له من أحداث خلال عشر سنين ، تقريباً .

وهذه « الاعترافات » طريفة ممتعة ساحرة ، على الرغم من كل ما جاء فيها . وذلك أن الرجل أراد صادقاً أن يكتب كتاباً مفيداً ، يرسم فيه نفسه ، لأول مرة فى تاريخ البشرية رسماً لا تزييف فيه ، لعل فيه دروساً جميلة للإنسانية .

ولم يكن « روسو » دائماً رجلا خيراً ؛ وإنما وقع له أن كان خبيثاً ؛ فندم وكفر وسجل فى « اعترافاته » حالاته المختلفة . وقد شرع فى كتابتها وهو فى حال نفسية مريرة من اضطهاد وعذاب ؛ فكان يصيح : « أفضل أن ينسانى الناس على أن أكون إنساناً عادياً » ؛ لأنه كان يريد أن يكون مفرداً .

وكان فى اعترافاته مخلصاً لنفسه ؛ يحكى كل ما جرى له من ذكريات منذ خمسين سنة ، وهى بعيدة عنه كل البعد ؛ قد تخون فيها الذاكرة فتحرّف أو تنسى ، فإذا وقع خلاف فليس مصدره الكذب وإنما خيانة الواقع له .

وما نعرف إذا كان « جان جاك » قد حاول أن يخدعنا بحجة النسيان فساق بعض الأخطاء والهفوات سوقاً ، مما نقده عليه العلماء والأدباء . فإنهم لم يقعوا فى الاعترافات على مديح شخصى لنفسه . أو تبجح بذاته ؛ ولم يقفوا على مكر أو خبث أو رياء فى سياق الحوادث ، لأنه اعترف بأشياء خطيرة كان فى غنى عن أن يعترف بها لو كان يسعى إلى الكذب والتلفيق .

وصف المغامرات التى مرّت به والحوادث التى وقعت له ، وصفاً عظيماً ككاتب كبير فوفق فى ذلك أشدّ التوفيق . وليس هذا يعنى أنه وحده كتب المذكرات الشخصية ، وإنما كتب غيره مئات من الكتاب مذكراتهم ولكنها لم تكن

شخصية . فلم يعترف هؤلاء إلا بما أرادوا أن يعترفوا به أو ما كان يلذّ لهم أن يقولوه . فهم يعنون أشدّ العناية حين السرد . ويرتبون الأمور فى حياتهم وذكرياتهم ترتيباً فنياً .

ولكن « روسو » وحده أراد أن يقول كل شىء فاعترف بكل شىء من غير رقيب ولا رغبة فنية . ولذلك كانت الاعترافات شهادة لنفسية عجيبة تذكر فضل روسو . وعبقريته وحياته الشاذة . فقد حاول أن يتساءل دائماً لماذا فعل هذا ولماذا أعرض عن ذاك . وتحدث عما وقع لجسده . حتى اتهمه الأطباء بالجنون . ورأى علماء النفس فى « اعترافاته » درساً نادر المثال للبحث .

والاعترافات صورة لنفس قلقة معذّبة . تنتقل من سقوط إلى سقوط . وكانت عبقريته تحاول أن تنقذه مما يتحدّر إليه . وتدفعه إلى أن يسيطر على آلامه . فقد كتب أنه لا يعرف الخوف والعار والخطر . والعالم كله ينمحى أمامه . وهو مع ذلك يخشى أى شىء ويخاف حتى من الذباب .

والذين عرفوه فى ساعاته المطمئنة عرفوا فيه محدّثاً لبقاً . صاحب فكر ذكىّ . فقد كان فيلسوفاً وشاعراً معاً . وكان الشاعر فيه يغلب على الفيلسوف . وكان مؤمناً وشاكاً . وقاضياً واقعياً وحالماً ، وكان خجولا وجريئاً . هادئاً

وقلقاً . فجمع المتناقضات .

وكان يتعب من المحاكمة فى آرائه . أو من المحاكمة فى سماعها . ولكنه حين كتب الاعترافات رفض أن يحاكم ، أو كان لا يحاكم إلا فى نفسه ، فلم يفته صوت أو حركة أو مكان أو ظرف . بل تذكر كل شىء .

والاعترافات تكمل مجده فى « هلويز الجديدة » . وتبث فى النثر لعصره روح العزلة والريف والحلم « ولدت مع فكرة العزلة فى الطبيعة . ولم تزدنى الأيام واجتماعى بالناس إلا عكوفاً عليها » . فوجد فى عزلته جمال الطبيعة التى تستقبله ولا تخيب أمله . وتسكره بالسعادة . حتى ليتصوف فى عزلته . ومن هذه العزلة ولدت « هلويز » فى الغابة . كما ولدت آثاره العظيمة كلها . وفيها العقد . وأميل . وعدم المساواة — كما قلنا —

وهذه الاعترافات هى سجل حياته . أورد فيها التواريخ الكاملة والدقائق التافهة . وذكر الرسائل والأوراق . وكل ما مر به خلال نصف قرن . بل إنها تاريخ العصر فى سويسرة وفرنسة وغيرهما . تصور الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية والاقتصادية ، وترسم الرجال والنساء والأزياء والتقاليد والعادات . والصالونات الغنية والبيوت الفقيرة ، وتصف الطبيعة وعواطف

النفس . منها اقتبسنا خطوط عيشه كما اقتبس غيرنا[١] .
وعنها أخذنا مراحل حياته . فاتخذناه مؤرخاً صادقاً وكاتباً أميناً . فقد كتبها حين بلغ مرحلة النضج والفهم وأدرك الحياة إدراكاً عميقاً وبلغ القمة فى معرفة العصر ورجاله وطبقاته . لا يضيره مرضه وضعف أعصابه وتحوله . وعصبيته . وجنونه أحياناً . فقد تحمل الرجل ما لا يتحمل إنسان من تنقل وفشل . واضطهاد وتشريد . وفاقة وحاجة . حتى إنه لم يقبض من حياته كلها إلا هذه الشهرة . وإنما كان بيته هى الدنيا وأولاده هى كتبه الفاخرة وأسرته هى المجتمع كله .

ونحن مضطرون إلى أن نتصور حياته حين كتب هذه الاعترافات . والناس على أكثر الطبقات حانقون عليه . والحكومات تتربص به الشرّ . والهواجس تطرق خياله وعداوات الأصدقاء أشد من أية عداوة ؛ فكان يرى بكل باب جاسوساً . وعند كل زاوية رقيباً ، وكلهم يتآمر عليه والمرض يؤكد هذه الهواجس والريب . وهو بعد ذلك نظر إلى نفسه نظرة القاضى إلى المتهم فأرسل بالأخطاء تترى ثم وقف وقفة المحامى عن نفسه . فلم يخجل من ذكر قبائحه ؛ واحتقار

---

(١) صدرت الترجمة العربية للاعترافات . بقلم محمد بدر الدين خليل ، فى مطبوعات كتابى : بالقاهرة .

الناس له . وجمع حوله أصدقاءه يقرأ عليهم سيرة حياته ، فبكوا لآلامه وأشفقوا على شقائه . وأعجبوا بأمانته وصدقه فيما يروى وفيما يسرد ، كأنه يحمل كتابه يوم الحساب ليناقش عما اقترفت يداه ، وليدافع عن نفسه فيما اقترفت البشرية ضدّه .

وهذه الصفحات تصور ألم اليتيم الفقير ، وتقفنا على عيش المشردين المعوزين وتبصرنا بالعبقريات التى تمر بنا فى كل دقيقة ، فتدفعها نظراتنا المتكبرة ، ونفوسنا المتغطرسة ، لأنها فى ثياب مهلهلة ووجوه شقية وشعور مشعثة ، وتعلمنا أن الإنسان يقتل الإنسان فيعين الطبيعة القاسية ، ولكنها من حجر صلب ونحن من طين وماء ، وشعور وشرايين ، وهى صامتة صمّاء ، ونحن ننطق ونحسّ ، وهى مع ذلك تمنح كل ما تملك لمن يرد إليها ، ونحن نحرم أكثر ما نملك لمن ينحنى أمامنا . فالجماد أرق من الإنسان وأكثر إشفاقاً لو تكلم لأخجلنا مما يشهد كل يوم ، ويبصر فى كل جيل من دماء تسفح ظلماً ، ونفوس تزهق جرماً ، وقسوة يهتز لها الحجر ويبكى لها الكون .

وقد فتح روسو بهذا الوصف باب الشكوى ، فبسط المخازى والمظالم ، فأثار الأغنياء ورجال الدين حين ذكر ما كان منهم ، فقد عرفهم عن قرب ، وعاش بين هؤلاء وهؤلاء .

فى بيوت الأثرياء وفى بيوت العبادة . فخرج من ذلك بإنكار وشك ما كان لغيره أن يصفهما بمثل ما وصف . وتبرأ من كل مخازيه لأنها مخازى الإنسانية . فصاح : « كنتُ أتمنى أن أستمر على مذهبى الدينى فى بلدى ووطنى بين أهلى وأصدقائى . كنت أتمنى أن أحيا حياة هادئة صافية . وأن أعمل عملا يلائم مشاربى . وأن أعيش بين جماعة يحبهم قلبى . كنت أتمنى أن أكون مسيحياً طاهراً . ووطنياً مخلصاً وأباً باراً . وصديقاً وفياً وعاملا ماهراً . كنت أتمنى أن أكون سعيداً فى كل أحوالى وظروفى . وأن أعيش عيشاً هادئاً ، وأن أموت ميتة هادئة بين أسرتى وفى وطنى » .

ولكن هذه التمنيات لم تنفع أبداً . لأن الرياح الظالمة حملتها إلى كل مهب . ونثرتها بكل سبيل . ولبث « روسو » كما قدر له أن يكون ، يحمل عذابه وآلامه وقلقه ومرضه معه فى كل مكان ، ما وسع قلبه أن يحمل وجسده أن يتحمل . فنطق لسانه فى « الاعترافات » باسم الملايين من الأشقياء التعساء الذين لا يستطيعون أن يكتبوا كما كتب ، وأن يشتهروا كما اشتهر . فقد حمل رسالتهم فى أبرع أسلوب ، ونقلها فى أعمق كتابة ، وأذاعها فى الدنيا . فهو ابن الشعب الذى استطاع أن يصور حياة الشعب فى نواحى الحياة كلها : لم

يغفل منها أمراً . لذلك كانت حياته عظيمة . وكانت الاعترافات التى رسمها وأحصاها وحملها عظيمة كذلك . لأنها حياة كل بائس مشرد مضطهد . تدمغ البشرية فى ظلمها ووحشيتها وقسوتها . على لسان محام مفكر فيلسوف وشاعر أديب استطاع عقله أن يفلت من براثنها ومن ظلمات سجنها وقيودها . لينقل إلى البشرية مخازيها . ليبث روح الحرية فى كل مكان . فانتصر وفاز . وكانت الثورة وحقوق الإنسان . وكان بدء الانطلاق فى تحقيق العدالة الاجتماعية واحترام الكرامة الإنسانية . فإن لم تذهب بعد اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد الباقية[1] ؛ وتهدّ الصروح المظلمة .

---

(١) اقتبسناها من كلمة عبد الرحمن الكواكبى فى صدر كتابه عن « الاستبداد » .

نهاية المطاف

سافر « روسو » إلى باريس سنة ١٧٧٠ . بعد أن قضى ثمانى سنوات متشرداً . يسعى وراء ملجأ يضمه آخر أيامه . فى سويسرة أو إنكلترة . أو فرنسة . فقد قارب الستين من عمره . فى سنّ تحوج إلى القرار والهدوء . وتطمئن بنهاية المصير . دعاه أحد أصدقائه إلى باريس ، فهبّ تحت حمايته يلبى الطلب ، آملاً أن يدافع عن نفسه وأن يردّ التهم التى وجهت إليه ، وأن يشرح ما كان من قلمه ومبادئه وآرائه . فقد يجد حريته فى باريس أكثر مما وجد فى المدن الفرنسية الصغيرة . فسكن فى الشارع الذى كان فيه قديماً ، بمنزل فقير ، واتخذ غرفتين متواضعتين فى الدور الرابع ومعه تريز زوجته .

وتنقل من بيت إلى بيت ومن صالون إلى صالون يقرأ مخطوطة كتابه « الاعترافات » لعله يكذب ما لفق عنه . ويؤثر فى النفوس الخيرة ، فتحزن لما حل به ولما يقع له من تشريد . ولكن أمله خاب ، فانصرف إلى العزلة فى بيته ، ينسخ من الموسيقا ويهتم بالنبات ، ويتنزه فى المدينة وفى أطرافها .

آسفاً أنه حتى الآن وفى مثل سنه مضطر إلى تبرير ما كتب : حتى « الاعترافات » لم تكف فى ذلك ، فأنشأ يكتب من جديد « حواراً » بين رجلين فى الشارع يتناقشان فى أمر « جان جاك روسو » . ليبرهن على أنه ليس فظيعاً إلى الحدّ الذى وُصف به .

وحمل هذا الحوار إلى كنيسة نوتردام سنة ١٧٧٦ . ليرفعه إلى العناية الآلهية . ويؤكد أنه ظلم فى كل شىء . قال فيه : « يا حامى المظلومين . يا إله العدالة والحق . تقبلْ هذه الوديعة التى يضعها على مذبحك ، غريبٌ تعيسٌ . وحيد من غير سند ولا نصير على الأرض . معذبٌ . مضطهد » ويصوّر بعد ذلك ما لقى من آلام الناس وظلمهم وتعسفهم فى فهمه . وقدم إلى الكنيسة ليضع مخطوطة الحوار ، ثم ارتدّ بعد أن دخلها ، فأحسّ بغربته وما وقع منه ، فخرج هائماً على وجهه كل يومه يقسم أنه لن يطأ الكنيسة ثانية ما عاش ، كأنه أتى أمراً إدًّا .

وظل يقلّب الرأى فى إيصال الحوار إلى الكنيسة ، حتى هداه خياله إلى أن يلخصه فى رسالة كتبها بعنوان : « إلى كل فرنسى ما يزال يحب العدالة والحق » وراح يوزعها على المارة ، فأضحكه أنهم رفضوها لأنها موّجهة إلى غيرهم . وهكذا

يضحك روسو وقلبه فى غمرة الآلام واليأس من البشر الذين يحيطون به . حتى إنه لما سمع بموت لويس الخامس عشر ١٧٧٤ حزن جداً . ولما سئل قال : « لأنه كان يقاسمنى كره الشعب . أما الآن فعلى أن أتحمل هذه الكراهية وحدى » .

وساقه الفشل فى الخطة الثانية إلى أن يكتب كتاباً جديداً « أحلام جوّال منعزل » فى خريف سنة ١٧٧٦ . وفى هذا الكتاب أجمل الصفحات الفاتنة التى خطها روسو . صوّر فيها ألم الاضطهاد والملاحقة . وتهديد الفلاسفة له . وغضب الرأى العام ضدّه . وتخيل الأشباح والأشخاص تجرى وراءه وتطارده حتى يصيح : « هأنذا وحيد على الأرض » . ولكنه داوى ذلك بالنزهة فى الريف والجبل والحديقة وجمع النباتات ووصفها فى شعر نثرى . قريب مما كتب فى هلويز . على بساطة وطرافة وجمال يذهل القارئ . ويفتن به . كالسحر فى أروع أحابيله . والخيال فى أكمل صوره . فكان كتاباً عظيماً رائعاً . رسم أحلامه فيه على هدوء غريب . وتعلق بالإله عجيب . بعد أن تعب من الشكوى وملّ من الألم .

ويبدو أن المؤلف الفيلسوف يئس من إقناع جيله بصدق ما ذهب إليه وبراءة نظرته وصدق قلبه وسمو تفكيره . فوقف عن الطموح إلى ذلك فى زمانه ، مؤمناً بأنه سينصف بعد

زمانه . وتفهمه الأجيال بعد موته .

وألح المرض عليه . واجتاز خلال هذه السنة أزمة عصبية زعزعت كيانه وهزّت عقله حتى اتهم بالجنون : فظنّ الظنون بأصدقائه جميعاً . وشك فى كل من حوله . وحسب أن الذين يكرهونه إنما يحسدونه لأنه فوق كل كاتب حتى فولتير : وهو فوق كل مفكر . ومجده يعلو على كل مجد .

وازداد مرضه وبؤسه وفقره : وانصرف الناس عنه حتى زوجته تريز ملته وسئمت عيشه . وأهملته فى أيامه السوداء : ورمته بالجنون والطيش والنزق : فازدادت وساوسه وآلامه . وساءت حاله . وبلغ درجة تمنى معها الموت ليتخلص من هذا الظلم والألم . فقد كان البرد يدهمه فى غرفته . والحاجة تلح عليه . وهو يرتعش ويرتجف . ويداه ما تزالان تعملان على نسخ الموسيقا منذ الصباح حتى المساء لكى يجد الأجر الذى يعيله ويكفيه لمأكله وحاجاته . وذلك أنه أراد أن يكفر عن عيشه فى كنف الأثرياء فقال : « يجب أن أعيش من عمل يدى » .

ولكن العجز والمرض عملا معاً على حربه فأصبح لا يستطيع نسخ الموسيقا . وبذلك أضحى لا يملك المال لغذائه الضرورى ، حتى تمنى أن يقبل به أحد المستشفيات مع زوجته ، على أن يدفع لقاء ذلك دخله السنوى . ولكنه لم يجد ملجأ رحيماً يقبله

أو مستشفى يؤويه . وقد بلغ الخامسة والستين من العمر . سنة ١٧٧٧ .

وزاره طبيبه ذات يوم فهاله ما رأى من حال المفكر الفيلسوف . وخاف أن يقضى برداً وجوعاً . فأوصى به صديقه المركيز « جيراردين » وحمله على زيارته . وكان المركيز من المعجبين بروسو وآثاره . فقدم له بيتاً صغيراً فى أملاكه : « بأرمنونفيل » . وهى قرية صغيرة على خمسين كيلو متراً من شمالى باريس . فقبل الرجل وانتقل إليه فى ٢٠ مايو ١٧٧٨ .

ومن عبث القدر أن « روسو » كان يهجر باريس إلى غير رجعة . فيمرّ فى أحيائها مجهولا . منسياً . لا يعيره المارّ التفاتة . بل لعله لا يشفق لشيخوخته وفقره . بينما كانت باريس فى عيد كبير . قد غصت شوارعها فرحاً وسروراً باستقبال « فولتير » . وهو عائد من منفاه بعد غيبة ست وعشرين سنة . والناس يتحدثون عنه ويصفقون لنصره ، ويهتفون لرواياته وأقواله وآثاره .

وكان « لروسو » أن يشهد تقدير الشعب الفرنسى لابنه البار . وهو عليل غريب الديار يذكر وطنه « جنيف » وما يخبئ له . فإذا بلغته وفاة « فولتير » وهو يدخل « أرمنونفيل » قال فى ألم ويأس : « أحسّ أن حياتى كانت مرتبطة بحياته ،

أما وقد مات فلن أتأخر عن اللحاق به . » وهكذا نسى هذا الرجل الكبير ما كان بينه وبين فولتير من خصومة حين حكم الموت وفصل القضاء .

وعكف روسو على النزهة . والنبات . وسماع الموسيقا والعزف بيدين مرتجفتين . بروح تسمو على الآلام والفقر والحاجة والناس . فزاره صديق له فى اليوم الأول من شهر يولية . وقد شعر الكاتب بضعفه . فأسلمه مخطوطة « الاعترافات » وفى اليوم التالى نهض صباحاً ليجمع النبات منذ الخامسة . وعاد بعد ساعتين متعباً منهوك القوى . وفيما هو يشرب الشاى شعر باختناق وضيق ؛ فجر نفسه قرب السرير . ونهض قليلا يريد أن يمتع ناظريه بالنور والخضرة ؛ يودّع الطبيعة الجميلة . فسقط بين يدى تريز فى منتصف الغرفة ، وسكنت حركاته ، فصاحت صياحاً مفزعاً فى رعب وخشية ، وقدم سكان البيت إلى عونها ؛ وأسندوه قليلا ، فضغط على يدى تريز وهو يتمتم : « أحس بوخز الإبر فى صدرى ، كأنها تمزق أضلاعى . . . الكون . . . الآله . . . السماء صافية . . . لا سحاب . . إن الله ينتظرنى . . . » وأرسل زفرته الأخيرة ، وانطفأت شعلته ، وأسلم الروح فى ٢ يولية ١٧٧٨ ، وحمله ملاك الموت من أرض الشقاء على ست وستين عاماً ؛ فمات غريباً فى الدنيا . بعيداً

عن وطنه محروماً من الأهل والولد .

وهكذا استراح الجسد بعد طول السير والسرى فى طلب العيش . والسعى وراء الأمجاد . وراحت شعلته تنير العصر بأسره . وذهل الناس لموته الفجائى . وهمس بعضهم أنه انتحر . وقال آخرون إن « تريز » قتلته بعد أن ضاقت بحياته .

ودفن « روسو » فى « أرمنونفيل » بجزيرة الحوْر . والماء يخفّ من حوله . والأشجار الباسقات ساهرات بقربه . تداعب الريح فى موسيقا حزينة . وتعبث بالنور والظلال والمكان هادئ ساكن كالذى كان روسو يختاره دائماً ليكون موضع سكناه . فإذا به أصبح المسكن الأخير .

وأصبحت الجزيرة بعد ذلك مزاراً لمحبيه وعارفى أدبه . يحجون إلى قبره ويذكرون ما كان من حياته وبؤسه وعذابه . ومن أمجاده ومفاخره ؛ وغدت زيارة الجزيرة عادة وزياً ، حتى أن « مارى أنطوانيت » زارت قبره وسعت إليه ، كما سعى إليه الزائرون من مختلف الطبقات وفيهم رجال الدين . وهكذا صدق حدسه فلقى بعد موته ما لم يلقه من حبّ وتقدير خلال حياته .

وفى ٢١ ديسمبر ١٧٩٠ ، قرر المجلس التأسيسى الفرنسى أن يصنع تمثالا فى باريس لابن جنيف ، ولم يصنع لغيره قبله

أى تمثال . وقد رفعوا بعده لفولتير مثله .

وفى ١١ أكتوبر ١٧٩٤ . قررت الأمة أن تعترف بجميل هذا الوافد العظيم . فنقلت رفاته من الجزيرة فى احتفال مهيب إلى « البانتيون » . لتجاور رفات خصمه « فولتير » . وقد كان هذا الاحتفال على كل لسان لضخامته وعظمته . مشى فيه الناس على فئات . كل فئة تمثل كتاباً من كتب روسو . فامتد حبلهم من حدائق التويلرى حتى مبنى البانتيون « كنيسة سان جنفيف » . وسار أعضاء مجلس الأمة فى الطليعة . يتقدمهم رجل يحمل « العقد الاجتماعى » . وأمهات مع أطفالهن يرمزن إلى « إميل » . وموسيقيون عازفون يمثلون « عراف القرية » وسلال الثمار . وأكاليل الزهر تذكر بحبه للطبيعة . وفئة من سكان جنيف تعيد إلى الأذهان ذكرى مسقط رأسه .

وفى « البانتيون » مدفن العظماء سكنت الرفات إلى الأبد . لتتلقى فى كل سانحة تحيات الوافدين من أقطار الأرض ، وإكبار المعجبين بآثاره من أقصى الدنيا . وثناء المخلصين لشعلة الحرية . أنى كان منبتها وأنى كان متحيّاها .

الذكر الخالد

خلّف « جان جاك روسو » آثاراً خالدة للإنسانية . فيها شعر . وفيها نثر . وفيها مسرحيات وروايات ومؤلفات موسيقية كثيرة . وأغان جميلة . فطرق كلّ باب من أبواب التأليف . وعزف على كل وتر من أوتار الإلهام والوحى . وترك كتباً فى النباتات (١٧٦٣ — ١٧٧٣) ومقالا عن الاقتصاد السياسى (١٧٥٨) ، ورسالة إلى فولتير أثر فاجعة ليشبونة (١٧٥٦) ؛ ومسرحية « عراف القرية » . عرضنا لبعض وأغفلنا بعضاً فى كتاب صغير نريده سهلا يسيراً .

وهذه الآثار كلها تنبئ عن جدّ متواصل ، وفكر ملهم ، ودماغ عبقرىّ ؛ مهما كان من أثرها فى قلوب الكتاب والفلاسفة والكنيسة ؛ يستوى فى إكبارها والإعجاب بها خصومه وأصدقاؤه . فقد كان « روسو » يثير الأفكار ويبعث الحركة والنشاط ما يفتأ يفكر ويكتب فيسجل كل ما كان يخطر له ؛ حتى شغل جيله وما يزال يشغل الناس بعد جيله .

كان فيلسوفاً يمثل الردة العاطفية ضد جماعة الانسلكوبيديا ؛ ويعلن الأدب الشخصى الذى مكنت له الرومانتيكية فيما بعد .

وكان يرجع إلى الإيمان بإله . يبرهن على وجوده بتماسك قوى الطبيعة وجمالها ؛ فيقيم الدليل عن سبيل وجدانه على وجود الخير والشر فى الأرض . وهذا الذى سبب اضطهاده . وجعله بين نارين محرقتين : فلم يكن مؤمناً فى نظر الكاثوليك المتطرفين ولا فى نظر البروتستانت . ونظر إليه جماعة الإنسلكوبيديا بأنه دينى جداً . فهاجمه هؤلاء وهؤلاء . ولبث وحده فى الميدان .

وكان يدعو إلى الحياة الطبيعية ، من غير أن يوقف سير الحضارة . ويدعو الشعوب الصغيرة إليها عن وعى وفهم راجياً أن لا تفسد المبادئ الجميلة والفضائل المنسية . وكان رساماً للطبيعة . فقد قرأ فى كتابها الكبير . فرسمها كفنان وشاعر يحدث النفس الإنسانية . فيصلها بالغابات والهضاب والبحيرات .

ولقد أثار خلال حياته ضروباً من البحوث والآراء والكتب . ولكنه بعد أن مات أصبح أكبر من كاتب وأعظم من رجل ، لأنه غدا رفيقاً أميناً فرفعه موته على فولتير فى بعض النواحى ، لأنه أثر فى الأجيال أكثر مما يؤثر زميله . فقال غوته : « يموت فولتير تنتهى دنيا ، ويموت روسو تبدأ دنيا » . فالأول يمثل الماضى والثانى يمثل المستقبل — على رأى الأديب الألمانى — مات فولتير قبله على سريره فى بيته بباريس كما يموت الناس ، والقسس يتحرقون لكى يردوه إلى الإيمان فلم ينجحوا . ومات

روسو بعده فجأة فى عزلة ووحدة عظيمة فى بساتين . فدفن كشاعر منهم فى جزيرة الحور . تهدهده موسيقا الطبيعة . فكأنه أخذ آخر الأمر إلى ملجأ الشاعرة ومعبد الحب ومذبح الأحلام . فأثار عواطف المعاصرين وروّى نفوسهم الظمأى إلى الحلم والفلسفة والهوى . ولّى الحب العميق والوفاء الصادق . وانتقل إلى قبره بعد سنتين من موته نصفُ سكان فرنسة ليزوروا الجزيرة ويجددوا الحجّ . وعبر المانش كثير من الإنكليز ليقدسوا تربته وآراءه . وانتحر المحبون فى النهر ليموتوا بقربه.

ولعل ذلك كله أرضى روحه القلقة المعذبة المشردة المريضة. وأنساه الذكرى المريرة حين طردته أربع دول . وحكمت عليه ثلاثٌ لخروجه عن الدين والقانون فإذا به يصبح مقدساً . تختار المجامع مديحه كجائزة لمن يجيد فى الكتابة عنه . وغدت عقيدته الدينية مثار بحث وتقدير . وقد كانت فى حياته مبعث اضطهاد ، فعده الكتاب نبياً لديانة حقيقية . وطبعت كتبه وأعيدت طباعتها مراراً . وطالب أهل جنيف بالنظر إلى الديانة على ضوء آرائه ؛ فى الاعتماد على القلب لا العقل . ورجال الكنيسة والقسس أنفسهم راحوا يمدحونه وقد حاربه زملاؤهم من قبل .

وأما الكتاب فقد تأثروا به وساروا على خطاه ؛ فأصبح

الأدب الفرنسى مديناً له فى الرومانتيكية وفى الأدب الحديث كله . فقد عرفه شاتوبريان وصحبه فى سنيه الأخيرة . وقلده فى كتبه . يستعير أكثر آرائه وجمله من روسو . كما يستعير منه الكتاب الآخرون . فهذا ده ستال . تُعَدّ ابنته الروحية . تغذت منذ طفولتها بآثاره . فطبعت فلسفتها ودينها بطابعه الخاص .

ومشى الشعراء والروائيون على هديه كذلك . فقد علمهم النظر إلى الطبيعة والإحساس بها . ودربهم على سبر أغوار النفوس والدخول إلى قرارة قلوبهم ليخرجوا منها اعترافاتهم وتصريحاتهم مكشوفة للقراء . به تأثر لامارتين . وموسه . وجورج ساند . وفيكتور هوغو . وميشليه . وهذا الأخير كان ابنه حقاً فى حماسته ونزقه وأفكاره المبدعة . وبيير لوتى كذلك تبعه فى آثاره واستوحى صوره . وكثير غير هؤلاء . لا يحصرهم عدّ . إلا إذا شئنا أن نكتب من جديد تاريخ الأدب الفرنسى الذى تتلمذ على ابن جنيف . ذلك لأن روسو كان الهواء الذى استنشقه هؤلاء الأدباء بملء صدورهم . بل إنه النسيم الذى يتنفس به الجيل الأدبى إلى اليوم .

واقتفى أثره رجال السياسة وزعماؤها . وهم يرتلون خطابه عن عدم المساواة وكتابه « العقد » . فأصبح الاشتراكيون

يدينون له بكثير من آرائه . ويشعرون أن تعاليمه ترفرف فى كلماتهم . وترنّ فى خطبهم . وتطوف بأخيلتهم . وتتغنى فى جملهم . فقد كان صورة للفقر والحاجة . وكان عرضة لاضطهاد الطبقات المستغلة آنذاك من رجال الكنيسة والبلاط والأغنياء وأصحاب النفوذ . فكان ضحية آرائه الجريئة وأفكاره الثورية . خرج من صميم الشعب ليكتب إنجيل الشعب فى كل ما يحتاج إليه من علم وفلسفة وتربية وأدب وحب.

كذلك صحت نبوءة « روسو » إذ قدره أبناء الجيل بعد موته . فشيدوا له التماثيل والأوابد فى البلاد . ورفعوا كتبه إلى منزلة الكتب السماوية وقدسوه وغدا مشعل الثورة بالعقد . ومرشد المعلمين باميل . وكتاب البيت فى هلويز . ومعول الهدم فى الصروح الفاسدة بمقالاته عن المساواة والسياسة والمجتمع . وغدا عظيماً بين عظماء الأجيال الخالدين : من القدماء والمحدثين . بآرائه العبقرية لا بحياته المضطربة المتناقضة . من كاهن وطباخ وخادم فكاتب وفيلسوف ومعلم أجيال .

وقد كلفه هذا المجد ثمناً باهظاً دفع فى سبيله حياته وراحته فتعذب الجسد وتشرد وشقى فى سبيل سعادة الروح . وكذلك يدفع العظماء جزية خلودهم ولكنهم يكسبون الذكر الخالد .

والذكر للإنسان عمر ثان .

الفهرست

	صفحة
توطئة	٥
العصر	٩
الطفولة	١٥
الشباب	٢٨
فى باريس	٤٣
طريق الشهرة	٥٢
الحلم الجميل	٦٣
رسالة عن المسرح	٧٤
فيلسوف الشعب	٨٠
إنجيل التربية	٩٤
العاصفة	١١٠
سجل الحياة	١١٤
نهاية المطاف	١٢٢
الذكر الخالد	١٣٠

كتب أخرى للمؤلف

صدرت فى دار المعارف بمصر

١ — تحقيق وتعليق :

التحف والهدايا . للخالديين } فى مجموعة
شرح ديوان صريع الغوانى مسلم بن الوليد } «ذخائر العرب»

٢ — تأليف :

شاعر الشعب . حافظ إبراهيم (اقرأ)
الغزل — فى مجموعة « فنون الأدب العربى » (جزءان)
الوصف — » » » » »
المديح — » » » » »
الهجاء — » » » » »
عبد الرحمن الكواكبى — فى مجموعة « نوابغ الفكر العربى »